مكتبة العقائد
— ٢ —

ضوء جديد على الإسلام

الرد على الماديين

تأليف
محمد عبد المنعم خفاجي

الناشر

مكتبة جمهورية مصر
الصنادقية — الأزهر

عمارة رمسيس — بميدان رمسيس (باب الحديد) — بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كانت انطلاقة المارد الجبار «القومية العربية» مرة أخرى ، إيذاناً بعهد جديد تتجمع خيوط فجره فى العالم العربى ، الذى ساده الظلام أمداً طويلا .

ومفهوم القومية العربية ينافى التبعية الفكرية والمذهبية للغرب وللشرق جميعاً ، ويشير إلى اعتزاز العرب بمبادئهم ومثلهم وتراثهم الروحى والحضارى . . . ومن ثم فإنه لا بد ، بعد انبثاق فجر القومية العربية ، من أن يعى الشباب العربى دروس الماضى ، وعظات التاريخ الحاضر ، وأن يعرفوا جيدا أن إيمان شعب بمبادىء وافدة إليه ، ودخيلة عليه ، معناه تبعية هذا الشعب لغيره فى مذهبه وعقيدته ، وهذه التبعية الفكرية تستتبع حتماً تبعيةً سياسيةً طال الزمن أم قصر ، ومن ثم كانت دعوة القومية العربية إعلاناً للحرب على التبعية ، أياً كان لونها ، وأياً كان اتجاهها .

والثورة على التبعية معناها الواضح وقوفنا على الحياد ، الحياد الايجابى بين الشرق والغرب ، الحياد الفكرى والسياسى معاً ، حتى يتحقق لقوميتنا العربية ما تصبو إليه من استقلال فكرى وسياسى .

ويستدعى هذا الحياد وجوب نبذنا نبذاً كاملا للأفكار الشيوعية والاستعمارية على السواء، لأنها خطر على قوميتنا، وعلى مقوماتنا، ولأنها تنافى دعوة الحياد، وحقيقته الواضحة الصريحة.

ولنا مع المـــادية موقف آخر هو أنها تنادى بالإلحاد، وتدعو إليه، وتحارب الدين والمتدينين، وتكفر باللهوبالرسالات، وهذا يناقض أصول الدين مناقضةً كاملةً، ومن ثم كان لا بد من بيان موقفها من الدين عامةً، ومن الإسلام خاصةً، وموقف الإسلام منها، ليستبين للشباب العربى الطريق، وليعرفوا حقيقة المبادىء، التى تحاول غزونا بسلطان الدعاية والمال، والواجب الذى يلقيه على كواهلهم إيمانهم بالله وبوطنهم وبأنفسهم.

وفى هذه الفصول شرح مفصل لكثير من نظريات الإسلام وأصوله، وموقفه من المادية، التى تنشر الوثنية والإلحاد، وتدعو إليهما.

ونحن نقدمها إلى الشباب، على ثقة بأن تراث بلادنا الروحى والفكرى والقومى خير واقٍ لهم من سموم هذه المبادىء، وخيرعاصم لهم من دعوات تنافى فى صميمها ما أجمع عليه الشعب العربى من الدعوة إلىالقومية، والإيمان بالحياد، ومحاربة التبعية.

وسوف يتضح بجلاء من قراءة هذه الفصول مدى ما فى ديننا من قوة ومن تطور ، ومن ثراء إنسانى وفكرى ومذهبى ، وحسبنا بالإسلام وكتابه الكريم منهجاً عملياً إنسانياً رفيعاً ، نسير على ضوئه إلى المجد والعزة والتقدم .

وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

هذا الكتاب

لا يمكن لباحث منصف أن يوازن بين مبادىء الإسلام والمذاهب الأجنبية الدخيلة ؛ بين شريعة إلهية ونظم وضعية ؛ بين إصلاح وثورة متطرفة ؛ بين دين — روحه السلام والإخاء والحرية والتعاون الإنسانى لخير البشرية والحضارة — ومذهب وأ مذاهب تؤمن بالطغيان وصراع الطبقات والإلحاد والمادية ، وتثير الاضطراب فى الحياة ، وتعزل معتنقيها عن المؤمنين بالمثل العليا فى الحيـــاة الشريفة .

ومع ذلك فسنحاول البحث والموازنة ، وشرح موقف الإسلام من هذه المبادىء الوافدة ، وبيان رأيه فى جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، وتفصيل منهجه فى الإصلاح ، وما يدعو إليه من اشتراكية عادلة ، وديمقراطية حقة ، ومساواة لا حيف فيها ، وإيمان بحقوق الإنسان ، وحماية لها . . . وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء السبيل ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ؛ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . . »

آية ١٣ سورة الشورى .

الحضارة بين المـادية والروحية

(١)

للمادية الماركسية رأيها فى أسس الحياة والوجود والحضارة ، الذى يتجمع فى فلسفة مادية عجيبة ، لا تؤمن بالمثل ولا الروحيات والمعنويات .

فهى ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر ، مستقلة عنه : والمادة أولا ، ثم يتلوها العقل . . ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع ؛ والوجود المادى له ، لهما السيادة على الحياة الروحية ، التى هى عندهم انعكاس الوجود . ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله : « إن على حزب طبقة العمال ألا يقيم أعماله على مبادىء العقل البشرى المجرد ، ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتفاق الاجتماعى »[1] . ويقول انجلز : « إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة . وليست المادة من إنتاج العقل ، بل إن العقل ماهو إلا أسمى إنتاج للمادة »[2] .

وهى تذهب إلى أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ؛ وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من

(١) الدستور السوفييتى لفؤاد محمد شبل .

(٢) ٢٣ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨ .

حاجة إلى الروح الشاملة[1] .

« فهى تؤمن بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله[2] . ويرى كارل ماركس أن امتداد هذا إلى دراسة الحياة الاجتماعية وتطبيقها على المجتمع يؤتينا نتائج على جانب عظيم من الأهمية ، لأنه يفسر تطور المجتمع ، ويرجع حوادثه إلى أسباب مادية ، بحيث لا يترك شيئاً منها للمصادفة أو للإرادة الإلهية أو للأسباب العليا الخارجة عن الطبيعة[3] .

ومن ثم ترجع المادية كل شىء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية ، وتمتد جذورها إلى الظروف المادية للحياة[4] . . وتاريخ ارتقاء المجتمع هو عندهم قبل كل شىء تاريخ ارتقاء الإنتاج[5] ، وتهتم بتفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً[6] ينكر الدين[7] .

والفلسفة المادية إلحادية بطبيعتها ، معادية لكل ما يمت بصلة إلى الدين ، وكان ماركس زعيمها الروحى وشيخ الماديين

(١) ٣٠ الدستور السوفييتى
(٢) ٥٣ الشيوعية فى الميزان . (٣) ٣٦ ، ٣٧ نقد النظرية الماركسية
(٤) ٦٧ إنجلز (٥) ٧٩ المذاهب السياسية المعاصرة لعلى أدهم ، و ١٧ إنجلز . (٦) ٣٢ الدستور السوفييتى (٧) ٥٢ الشيوعية فى الميزان.

لا يؤمن بالمثل ولا يدين إلا بالمحسوسات ، ويقول : « لا إله والحياة مادة »[1] ، ويقول : « رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين وعلى الداعين إليه »[2] ، ويقول (هوبز) : « إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة لنا ، وأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، إن وجودى الخاص بى هو وحده الأمر المؤكد أما ماعداه فخيال لا أصدقه »[3] . ويقول إنجلز : « لا محل مطلقاً لوجود خالق »[4] ، ويقول زعيم لهم : « الحزب الشيوعى لا يمكن أن يكون محايداً تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين ينافيه »[5] ، ويصرون على أن الدين هو مخدر الشعوب[6] .

وللمذهب المادى دعاة فى القديم والحديث ، ويناقضه المذهب المثالى والإرادى والحيوى ، ومن أنصاره : هيجل وديكارت وشوبنهور ونيتشه وبرجسون وسواهم . وينقده كثير من الباحثين .

وهو على أى حال ينكر العواطف البشرية والمثل العليا والقيم الأخلاقية والجوانب الإنسانية والمعنويات الكريمة من فنون وآداب وديانات وسواها ، مما هو دعامة الحضارة ، والذين يعترفون بها من الشيوعيين يمسخونها ويردونها إلى عوامل مادية .

---

(١) ٥٢ المرجع (٢) ٥٣ المرجع (٣) راجع ١٤٢ الدستور السوفيتى : (٤) ، (٥) ، (٦) المرجع .

(٢)

إن هذا المذهب المادى الذى ينتهى إلى إنكار الله ومحاربة الدين ، يناقض أسس الإسلام ومبادئه أبعد مناقضة . وينكره الإسلام ويحاربه . . والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء الهدامة هم فى رأى الإسلام مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله ، لأنهم يعملون على مسخ الفطرة الإنسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ، ويهدمون الأسس التى بنتها البشرية على مر الأجيال مناراً رفيعاً للفكر والمدنية .

وفلاسفة الفكر الحديث يصرون على الاعتراف بالله والإيمان بالدين ، يقول شوبنهور : «إن فكرة الإله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية . وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء » ، ويقول رينان : « من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه إلا التدين ، فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى» . وكان تولستوى المبشر الروحى بالمادية مؤمناً بالدين ، وكان يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ؛ ويقول : «إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أنى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود

الله لقتلت نفسي من زمن بعيد . عش باحثاً عن الله ، وإذن فلن تعيش بدونه . وإذن يقوى اعتقادك فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة . إن البشر لا يزالون فى فجر عصر العلم ، وكلما ازداد ضياء العلم سطوعاً جلا لنا شيئاً فشيئاً صفة خالق مبدع ، وإن التواضع والإيمان القائم على العلم يدنوان بنا رويداً رويداً إلى معرفة الله»[1] . . ويؤكد علماء الذرة والفلك والحياة والرياضة وجود الله ، لأن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لاحد له[2] .

(٣)

والإسلام يدعو إلى الدين والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والثقة بالمثل العليا والاعتزاز بالفضائل الإنسانية وبالقيم الروحية ، وأساس الحياة عنده هى الروح والمادة تبع لها ، والروح هى التى ناجت الله فى الأزل وعاهدته على الإيمان بالدين كما يقرره القرآن الكريم[3] ، ثم خلقت المادة ، وحلت الروح فى الجسم ، وبدأت الحياة تنمو ، وبعد هذه الحياة الدنيا يفنى الجسم ، وتنطلق الأرواح ، وتبقى مخلدة ، حتى يأذن الله بالبعث وإحياء الأجسام من جديد . .

---

(١) راجع المختار عدد فبراير سنة ١٩٤٧ من مقالة لرئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك عن كتاب « الإنسان ليس وحيداً » .

(٢) راجع المصرى عدد ٢٣ / ٨ / ١٩٥١ .

(٣) راجع آية ١٧٢ الأعراف .

فالإسلام لا ينكر المادة إطلاقا، وإنما يثبتها ويجعلها مسخرة لخدمة الروح . .

وكل هذه الأفكار الإسلامية تهدم الأساس الأول الذى بنيت عليه المادية .

وجميع الحضارات القديمة والحديثة على السواء لم تقم على أسس مادية محضة ، إنما كان للعوامل الروحية أثرها البعيد فى قيامها ونموها ، والإسلام يدعو إلى بناء الحياة على الروح : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا[1] . . . » ويدعو إلى التحرر من أسر المادة والعيش فى رحاب التأمل والحرية والملأ الأعلى الفسيح ، ليتم وجود الإنسان وكماله وحريته فى الحياة ، وذلك كله هو الأساس الأول للحضارة فى رأى الإسلام .

(١) راجع آية ٧٧ القصص .

المادية حرب على الأديان

المادية آخر المذاهب الحديثة ، وأشدها حربا لفكرة التدين في الإنسان ، ولفطرة العقيدة التي فطر الله البشر عليها . وقد شن دعاتها في الغرب الحرب على الأديان ، وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الإلحادي ، وتحمل الناس عليه بقوة القانون ، وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا .

والمادية في جملتها تذهب إلى أن المادة في كافة صورها هي المؤثرة في كل شيء ، وإلى أنها في الوجود أسبق ، وأن لها ـ لا للمعنويات ـ القدح المعلى في مصائر الشعوب والإنسانية .

وكان للمادية دعاتها في القديم ، ومن آمن بها من الفلاسفة : (هيرقليطس) وليوسيس وديمقريطس . ومن دعا إليها في الحديث : بيكون ، وهوبز ، وقد ذهب الأخير إلى أن المادة والحركة هما وحدهما الحقيقتان المطلقتان، وأن المعرفة الإنسانية تأتي عن طريق الإحساس ، وقد أيده في ذلك تولاند الذي رأى أن المادة هي القوة ، والحركة والحياة والعقل بعض خواصها ، وأن التفكير هو وظيفة العقل ، وكذلك نهج بريستلي وهارتلي ، وداروين ، وبلامتري، وسواهم ممن استغنوا عن الروح واطرحوها وفسروا الحياة

تفسيراً ميكانيكياً ماديا محضاً . وألف « بختر » كتابه (القوة والمادة) الذى ظل حيناً دعامة قوية من دعائم المذهب المادى[1] . . وأعظم الماديين هو كارل ماركس اليهودى المادى المتطرف ، وقد ورث الروح المادى عن أستاذه إنجلز الذى كان يقول : «إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ماهو إلا أسمى إنتاج المادة» . وتفسير ماركس المادية هو الأساس الأول الذى يبنى عليه الشيوعيون مذهبهم ، فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه ، والمادة تأتى فى الصدارة ، ويتلوها العقل ؛ ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لهما السيادة على الحياة الروحية التى هى انعكاس المادة ، كما يقرران أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى

(١) راجع ص ٢٦ وما بعدها من كتاب نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨ .

الروح الشاملة[1] ، وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله ، وكان إنجلز يرجع كل شىء حتى الدين والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية[2] ، ويفسر هو وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيراً ماديا ، وهذا التفسير الاقتصادى للتاريخ ينكر الدين . وكارل ماركس شيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : «لا إله والحياة مادة »، وقوله: «رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين والداعين إليه » ، وكان (هوبز) يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » ، وكان إنجلز يقول : « لا محل مطلقاً لوجود خالق »[3] .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماديين فى إنكار الروحيات ، وجحد وجود الله ، ونبذ فكرة الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

---

(١) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٢ الدستور السوفيتى ؛ ٥٣ الشيوعية فى الميزان .

(٢) راجع ٣٠ و ٣١ الدستور السوفيتى - طبع النهضة ١٩٤٩ .

(٣) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفردريك إنجلز .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادى على ضلال مبين ، وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان ، والذين يؤمنون بهذا الإلحاد هم فى رأى الإسلام مرتدون ، يقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التى لا تتم الحياة بدونها ، وهو رسالة الله إلى الإنسانية ، حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، والفلاسفة والمفكرون الذين لهم خطرهم فى الحياة الفكرية فى العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله ، وكان تولستوى يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ، ويقول : « إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد ، عش باحثاً عن الله وإذن فلن تعيش بدونه ، وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة » .

ويقول شوبنهور : « إن فكرة الإله الذى ليس له نهاية وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى نفس الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة البقاء بغيرها » ، ويقول رينان : « من الممكن أن يتلاشى

كل شيء تحبه إلا التدين فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . ويثبت كريسى موريسون ـ الرئيس السابق لأكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه « الإنسان ليس وحيداً » وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل وينتهى إلى أن الله فى كل مكان وكل شيء ولكنه أدنى مايكون إلى قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعاً ، وأكد عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لاحد له ، ويقول الدكتور راين : « إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحا أو جسما آخر غير منظور » ، وقال عالم آخر : « إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم وهو ماتسميه الأديان السماوية (الله) هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود » .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمداً والرسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان ، وأن علينا واجب الإيمان بها وبخاتمة هذه الرسالات ،

وهى دين الإسلام ، وبالكتاب الخالد (القرآن) معجزة هذه الرسالة .

وصدق الله العظيم فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق،أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

الحـــرية الدينية
فى ظل الإسلام والمادية

(١)

الحرية الدينية هى أعظم حق من حقوق الإنسان ، وقد أيدتها المذاهب الفكرية الحديثة ، ونص عليها ميثاق الأمم المتحدة .

والإسلام يدافع عن الحرية الدينية إلى أبعد مدى ، وينتصر لها ، ويأذن للمؤمنين الذين يضطهدون فى دينهم بالدفاع عنه ، وهو لا يبيح لأنصاره أن يتحكموا فى الحريات الدينية . ويأمرهم أن يحترموا الأديان : « لا إكراه فى الدين[1] » ، « لكل أمة جعلنا جعلنا منسكاهم ناسكوه[2] » ، وأن يبروا أهلها ويقسطوا إليهم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين[3] » . ووصايا رسول الله وخلفائه فى احترام الحريات الدينية مشهورة .

ولكن المادية الحديثة تتنكر لهذه الحريات تنكرا شديدا . . وأعمال دعاتها وزعمائها فى بلادهم شاهد صدق على ما نقول . . ففى روسيا مثلا نجد أن المادية فيها بدأت بحملة قاسية على رجال الدين ، فقتل عدد كبير منهم ، وحرم عليهم

(١) من آية ٢٥٦ البقرة
(٢) ٦٧ الحج
(٣) ٨ الممتحنة

الظهور فى المجتمعات العامة ، وأغلقت بيوت العبادة ، وصودرت أوقافها ، وحرموا تدريس الدين ، وألغوا القسم به ، وألفوا الجمعيات للدعاية اللادينية ، وأصدروا مجلة أسبوعية اسمها (بلادين). وفى عام ١٩٢٥ عقد مؤتمر لوضع الخطط الخاصة بالقضاء على النزعة الدينية وبث روح الإلحاد فى المدارس والجيش ، وأخذ « اتحاد الإلحاد » فى النشاط حتى بلغ عدد فروعه فى ١٩٣٥ سبعين ألفا تضم الملايين . . وفى عام ١٩٢٩ صدر قانون يحظر الدعاية الدينية ويعتبرها عملا غير مشروع ، وبذلك عطلت مادة الدستور التى تنص على أن الدعاية الدينية مكفولة كالدعاية اللادينية .. وفى مايو ١٩٣٢ صدر قانون يهدف إلى القضاء على الهيئات الدينية خلال خمسة أعوام جاء فيه : « فى أول مايو ١٩٣٨ لن يبقى فى كافة البلاد أى مكان للعبادة ويجب القضاء على فكرة الإله بحسبانها من بقايا القرون الوسطى » (١) ، ونصت قوانين عام ١٩٣٩ على حظر الاجتماعات الدينية الخاصة وعدم السماح للهيئات الدينية، بالاحتفاظ بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم فى المراسيم الدينية ، وحظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية . . وإذا كانت روسيا قد أطلقت الحريات الدينية خلال الحرب ، فإنما كان ذلك كسباً للرأى العام الاسلامى ودفعا للشعب إلى تحمل مرارة الكفاح ، واستمالة لعطف شعوب العالم لتساعد روسيا فى محنتها . ولا يعنى هذا إيمان المادية

(١) الدستور السوفييتى.

بالدين فالطبقة الحاكمة هناك لن تقبل فى صفوفها إنسانا يؤمن بدين من الأديان ، ومنزلة الدين فيها خلال الحرب وبعدها لا تصل إلى عشر ماكانت عليه من قبل [1] ، والتعليم فيها ينشر الإلحاد ، والجماعات كلها تنفر من الدين ، وتأثير رجال الدين على الشباب قليل ، وهم يخضعون لتوجيهات الدولة خضوعا مطلقا .

(٢)

وللماديين موقف خاص من الإسلام يمثله قول مولوتوف : «لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين » .

ولقد عادى زعماؤها فكرة الجامعة الإسلامية لقوميات المسلمين هناك ، ولم يأت عام ١٩٣٣ حتى أرغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعت صلة هذه القوميات بالعالم الإسلامى ، وفى عام ١٩٣٨ أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية . مع أنها أباحت للأرمن والجورجيين — وهم أقل من المسلمين فى بلادها — الاحتفاظ بحروفها الهجائية الخاصة ، ولم ترغمهم على اتخاذ الحروف اللاتينية أو الروسية [2]

(١) راجع كتاب روسيا السوفيتية لمؤلفه دالن

(٢) ١٨٩ الدستور السوفييتى

وبهذا أصبح المورد الثقافى للمسلمين هو اللغة الروسية وآدابها وثقافتها عوضا عن اللغة العربية والثقافة الإسلامية .

وهناك قيد آخر على الحرية الثقافية المسلمين ، إذ لاتجيز لأية قومية أو أقلية عنصرية فى بلادها — ومن بينهم المسلمون — علاقة روحية أو ثقافية بقومية أخرى تماثلها فى العقيدة أو الثقافة خارج نطاق بلادها[1] . وبهذا حيل بينهم وبين الاتصال روحيا وثقافيا بالعالم الإسلامى الحر

وقد اضطهد حماة المادية المسلمين فى تركستان وبخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة وخوارزم ؛ ونفى الكثير منهم .

وظهر شعورهم حيال المسلمين فى تأييدهم المطلق للصهيونية واعترافهم بإسرائيل بعد وجودها مباشرة .

إن الحرية الدينية فى ظلال المادية لا وجود لها . وهذا هو ما يأباه الإسلام وتنكره مبادئه السمحة .

(١) ١٩٠ الدستور السوفيتى

الســـلام الاجتماعى

بين الإسلام والمادية

(١)

فكرة السلام الاجتماعى مبسوطة فى القرآن الكريم بسطاً واسعاً ؛ وقد دعا إليها الإسلام ورسوله ، وتناول أطرافا منها التشريع الإسلامى وحرص على تطبيقها الخلفاء والولاة المسلمون ويمثل بعض مظاهرها قول الرسول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ؛ والقول المأثور : «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

وليست فكرة السلام الاجتماعى أمراً مندوباً يدعو إليه الإســـلام . ولكنها فرض واجب وعمل حتم ، وهى جزء من العقيدة الاسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، وأن على كل إنسان فيه أن يؤدى الواجب عليه للآخرين بنفس الشعور الذى يشعر به نحو أسرته ، وأن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يشعر روحه تلك المعانى ويعتقد أنه لا يتم إيمانه بدونها ، وأن عليه أن يضحى من أجل غيره ، ويؤمن بالإيثار ، ويبذل المال والروح فى سبيل أخيه الإنسان ، ولذلك حرم الإسلام الرذائل الإجتماعية ، ونهى عن الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم . « كل المسلم عن المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ، وأوجب الزكاة ، وحث على الصدقة والإحسان

وتفريج كربة المهموم ومساعدة المحتاج .. وأوجب العدل بين الناس وحارب الأهواء والشهوات والمحسوبية ، وحتم التكافل الإجتماعي بين الناس ، وجعل أساس العلاقة بين الإنسان والانسان وبين الجماعة والجماعة هو السلام ، وأوعد المخالفين أشد الوعيد .

أما المادية فتؤمن بمبدأ اجتماعي عجيب ، هو « صراع الطبقات[1] » ، يقول إنجلز : « إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة : هو تاريخ الصراع بين الطبقات » .. ويقول ماركس زعيم المادية الروحي : « لن تستطيع الطبقة العاملة التحرك ولا النهوض بنفسها مالم تنسف جميع طبقات المجتمع المتراكمة فوقها » ، ويقول : « إن صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة» ، ويدعو ماركس إلى الثورة والانقلاب الشامل كضرورة للاصلاح ، ويؤثر عن لينين : «من غير نظرية ثورية لن تكون حركة ثورية ..» ، ويقول ستالين من رسالته فى المادية الجدلية : «تحرير الطبقة العاملة لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة فقط » .

هذه النظرية نقدها علماء الاجتماع نقداً عادلا (٢) ، وهى ولا شك تبذر بذور الحقد والبغض والكراهية بين الناس ، وتعمل على نشر الثورات والحروب ، وتقضى على التعاون والسلام فى

---

(١) ٧٧ الدستور السوفيتى :
(٢) ٧٤ — ٨١ نقد النظرية الماركسية .

المجتمع . . . مما ظهر أثره فى الثورات المادية واضحاً ملموساً معروفا .

وهى نظرية لا يقرها عقل أو دين ، ويحاربها الإسلام حرباً شعواء ، لأنها تفسد الأمن والسلام ، وتقضى على الإخاء الإنسانى وتجعل بعض الناس أعداء لبعض ، وتولد البغضاء والشقاق فى المجتمع .

وفى عصور الجاهلية الأولى لم تدع جماعة أو أمة إلى « صراع الطبقات » . . ويسير الإصلاح العام فى الدول المتحضرة بالوسائل السلمية دون سواها ، ولقد أوجب الإسلام أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض إخوة متحابين متعاونين فى الحياة ، وكذلك الطبقات .. « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

« قل إننى هدينى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ، ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .

الآيات ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ — سورة الأنعام

السلام العالمى فى الإسلام والمادية

(١٠)

السلام العالمي دعوة إلى التعاون بين الأمم البشرية ، وحل مشكلاتها بالوسائل السلمية ، وتحريم الحروب التي تقوم للاستعمار والاستغلال ، بل تحريمها لغرض نشر الدين أيضاً : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك»[١]. والإسلام بنظمه وروحه وأهدافه يعمل على نشر هذا السلام ويدعو إليه ، ويجعله هدفاً من أهداف الإنسان ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها »[٢] : ويؤيد هذا المبدأ بأن الناس يجمعهم أصل واحد ، وأن التعارف والتآلف والتعاون يجب أن يسودهم ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا[٣] » . ولذلك ألغى الإسلام العصبيات وفوارق الألوان والأجناس داعياً إلى الوحدة الإنسانية ، وإلى أن يعيش الناس كما بدأوا أمة واحدة : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا[٤]» ، « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم[٥] » ، ولم يشرع الإسلام الحرب إلا للدفاع عن النفس أو العقيدة .

---

(١) ٦٧ الحج (٢) ٦١ الأنفال (٣) ١٢ الحجرات
(٤) ١٩ يونس (١٥) ١٤ الشورى .

(٢)

والسلام - فى رأى الإسلام - ضرورى للبشرية ، وتلك قضية لاريب فيها ، فالسلام هو أنشودة البشر ، وأمل الإنسانية ، لأنه ضرورى لتقدمها .

هو الذى يساعد على الإنتاج ، وعلى رفاهية الناس ، وتقدم التجارة والصناعة والزراعة ، وعلى نشر العلوم والفنون والآداب ، وعلى سير الحضارة والمدنية والرقى .

أما الحرب فتهدم ولا تبنى : وهى وسيلة للتدمير والتخريب ؛ تبعث على الذعر والخوف والإضطراب ؛ وتدع الملايين من بنى البشر فى شقاء وظلام ، وتحط من مستوى التفكير والعمل والنشاط ، بما تنشره من فزع وأحزان ، وتوقف سير المدنية وتعوق تقدم بنى الإنسان .

وأنت ترى المفكرين ينادون بتحريم الحروب وتوطيد دعائم السلام بنزع السلاح ، وتحريم شن الحروب ، وبالعمل على توثيق الروابط الفكرية والاقتصادية بين أمم العالم ، وعلى إيجاد أخوة عالمية وزمالة إنسانية ، بل بإيجاد حكومة عالمية .

السلام هو المدنية والحضارة ، والحروب هى الدمار والخراب ،

والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان فى الحياة على التقـــدم ، والحرب أفظع ما شهده الإنسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشف القنبلة الذرية والصواريخ وسواها من وسائل الإفناء .

ولقد دعا الإسلام إلى السلام ، وحث عليه ، وأوجب السلام فى المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب، وبشروا بها الإنسانية، داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .

وفكرة السلام جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، والناس إخوة فى الله والإنسانية ، وعلى كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يؤمن بالإيثار وبالبذل وبالتكافل والتعاون الإنسانى.

والإسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والإخاء والتعارف ، وقد ألغى العصبيات وفوارق الألوان والأجناس .

فالدين الإسلامى فى جوهره ، شريعة السلام والوئام ، ودين الحرية الشخصية والأمن الاجتماعى والإخاء البشرى ، وهو من أجل ذلك يحارب الفوضى والاضطراب والشقاء ، ويحارب الطغيان والإرهاب وكل ما يحول دون تمتع الفرد بحريته ، والمجتمع بأمنه ، والبشرية بالسلام والإخاء المنشودين .

والدين الإسلامى فى اشتراكيته العادلة ، ومبادئه السمحة الواضحة ، وفى عمله على النهوض بالمجتمعات والشعوب فى ظلال التعاون والمحبة ، وفى رعايته لمصلحة الفقير والغنى جميعاً ، وفى وضعه المبادىء العامة التى تكفل للانسانية الأمن والتقدم والرقى ، هو فى ذلك كله يعزز مبادى السلام ، ويعمل على خلق جو جديد ترفرف فيه أجنحة السلام والإخاء والحرية والحضارة والنور والعلم والعرفان .

(٣)

أما المادية فتؤمن بالحرب وتدعو إليها ، وتقضى على السلم العالمى ، بإنشائها وتشجيعها للشيوعية الدولية (الكومنترن) التى تحدد أهدافها فى نشر المادية فى العالم ، وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين . وإثارة الإضطرابات والقلاقل السياسية والإجتماعية والاقتصادية فى الدول ، تمهيداً لثورة الطبقة العاملة ، وسيادة المادية ، وإذا كانت هذه الشيوعية الدولية قد ألغيت عام ١٩٤٣ تقربا للعرب والديمقراطيات ، فقد حل محلها مكتب الاستعلام (الكومنيفورم) ، وهى وإن تظاهرت بحل الدولية الشيوعية لاتزال توجه الحركات الشيوعية فى جميع أنحاء العالم[١] ، ولا يترك

(١) ٦٤٢ آثرت الحرية لكرافتشنكو .

ستالين فى كتابه (مشاكل اللينينية) أثراً للشك فى اعتقاده الذى لا يتزعزع فى أن من حق روسيا بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا مالاحت الفرصة لإشعالها ، وجاء فى مقدمة الكتاب : « إن دراسة تاريخ الحرب لتقوى الاعتقاد فى النصر النهائى للهدف الجليل الذى عمل له لينين وستالين ، وهو انتصار الشيوعية فى العالم كله »[1] .

وهذه الأفكار كلها تهدم صرح السلام العالمى ، وتناقض مايؤمن به الإسلام ويدعو اليه ، والإسلام يحرم أن توجد علاقات دولية قائمة على غير المحبة والتعاون الإنسانى ، ويحارب بذر الشقاق بين الأمم ، ويعادى اللصوصية المستترة ، والجاسوسية المتخفية ، والتمرد على النظام العام فى الجماعات والشعوب .

فأين هذا السمو الإلهى الاسلامى فى الفلسفات القديمةوالحديثة على السواء ؟ لقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران أن العلاقة بين الدول هى علاقة العداء والمنافسة : ويقرر أرسطو أن غير اليونانين أعداء خارجون على القانون ، وإخضاعهم واجب سياسى ، فأين هذا من سماحة الإسلام وجلال مبادئه وأهدافه ؟

---

(١) ٦٤٧ المرجع .

«كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، إن الله قوى عزيز »
آية ٢١ سورة المجادلة

السر فى قيام الإسلام

(١)

إن السر فى قيام المادية وظهورها هو هذ الخداع الغريب الماكر، الذى تتراءى فيه للفقراء والمحرومين والطبقات المظلومة، فى مظهر المنقذ المختار لنشر الغنى والسعادة بين الناس، وما تؤمن به المادية من صراع الطبقات، وعملها فى بيئة كانت المرتع الخصب لها، والظروف الدولية التى كانت تحيط بالعالم عقب الحرب الكبرى. وطغيان زعماء المادية طغياناً لم يعرف له نظير، مما ظهر فى المجازر البشرية القاسية وعدد الضحايا الهائل فى بلادها، وسجون الاعتقال، والتشريد والنفى إلى مجاهل سيبريا، والبطش بخصومها فى الرأى، والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة، والقضاء على الطبقات المعارضة لها فى بلادها، وأخيراً بهذه الشيوعية الدولية التى يؤيدها الذهب والدعاية والنفوذ.

وهذه كلها وسائل لا يؤمن بها دين، ولا يقبلها ضمير، ولا يوافق عليها عقل، وما أضل عقول الجماهير الجاهلة التى تفهم أن المادية تدعو لنفسها بنفسها لأنها حلم الساعة..

(٢)

أما الإسلام فعلى العكس من ذلك، وأمره فى قيامه وفى ذيوعه فى العالم على العكس من ذلك.

لم يكن الإسلام ثورة، ولم يدع إليها، ولم يبن خططه على حرب العصابات وصراع الطبقات، ولم يخدع محمد المحرومين، ولم يدع إلى مبادىء تافهة يعجز عن تنفيذها، ولم يؤيده ذهب ولا فضة، ولا نفوذ أو سلطان، ولا جاسوسية أو لصوصية، إنما كان الإسلام رسالة إلهية للاصلاح، وهى رسالة الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الدينية والعلم، إلى العالم كافة والبشرية بجميع طبقاتها: ولم يكن السر فى قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادىء الحق والقوة والخير والجمال[1].

لقد جمع الإسلام إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة، وضم إليه بقية الأمم ما بين المحيط العربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد، وكان قيامه فى الجزيرة العربية أثرا للدعوة إليه واقتناع العرب به، إذ لم يفرض عليهم بقوة السلاح، ولا بتأييد من عصبية أو سلطان.

ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاعا عن حرية العقيدة التى كان الشرك يريد القضاء عليها، وعلى نور الله الذى انبثق من

---

(١) راجع كتاب «السر فى انتشار الأسلام» لمحمد عرفة — ط ١٩٣١، وراجع ٢١٧ رسالة التوحيد لمحمد عبده — ط ١٣٦١.

الصحراء على يد محمد . وكانت مبادىء الإسلام نفسها ، وروح العدالة المطلقة والإخاء والمساواة التي سادت المسلمين الأولين بإيحاء قوى من دينهم ، هي السبب الأكبر في انتشاره : لقد دعا الإسلام بنفسه لنفسه ، ولم يؤمر محمد بشيء إلا بالدعاية لرسالته « وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم[1] » ، ويحق الله الحق بكلماته ، « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون » .

---

(١) ٦٧ الحج .

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ».

1

مبادئ الإسلام هى السبب فى انتشاره

كان المسلمون منذ بدأوا حياتهم الحافلة ، بعد أن انبثق نور الاسلام ، وبزغ على العرب فجر جديد ، فى كفاح ونضال وجهاد مستمر : حاربوا طغيان الأفراد والجماعات والشعوب ، فظفروا ظفراً مؤزراً « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، واكتسحوا الدول والأقطار ناشرين لهداية الله ، مؤيدين بروحه وأمنه ، حتى انتشر الاســـلام فى كل مكان ، وعم ضوؤه الآفاق .

وكان هذا النصر العظيم معجزة كبرى ، بهرت الناس . وحيرت المفكرين ، لأنه نصر خارق ، شمل جميع الميادين : الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية ، «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » ، فشملت الدولة الاسلامية أكثر أمم العالم المعروف آنذاك . وكانت العواصم الاسلامية هى محور السياسة العامة ، ومحط أنظار الناس . والنظم الاقتصادية التى شرعها الاسلام كانت هى النظم السائدة بين جميع هذه الشعوب ، والثقافة الاسلامية كانت هى المنهل العذب الذى ترنو إليه العقول والعيون ،

ويستمد منه الناس ثقافتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم . . والنظام الاجتماعى الذى وضعه الاسلام وكفل به التضامن الاجتماعى بين الأفراد والجماعات والطبقات ، وجعل الغنى والفقير والكبير والصغير والأمير والعامل إخوة متحابين فى الله . . هذا النظام الرائع هو الذى كانت تحلم بأن تحيا فى ظلاله أمبراطوريات كسرى وقيصروشارلمان ، والذى ارتمت فى أحضانه كثير من البلاد والأمم . وكذلك مناهج التفكير العامة وألوان الحضارة المشرقة عند المسلمين كانتا هما السائدين فى البلاد الخاضعة لنفوذ الاسلام . فوق أنهما من الآمال العزيزة التى كان يحلم بها وبالعيش فى ظلالها الملوك والأمراء والعلماء والعامة فى جميع الأقطار .

هذا التقدم العظيم والروح الوثاب، والنهضة الجبارة كان منشؤها الدين نفسه ، وشريعة الاسلام بما اشتملت عليه من آداب ونظم وأخلاق ومثل وعادات ونواميس وأهداف . . . فمبادىء الاسلام هى السبب الأول فى نشره وارتماء الأمم فى أحضانه .

لقد حارب الاسلام الضعف بجميع صوره وألوانه :

حاربه فى الفرد . فدعا إلى أن يكون المسلم قوياً عزيزاً كريماً كما يقول الرسول الكريم : « المؤمن القوى خير وأحب عند الله

من المؤمن الضعيف» ، ويقول : « اليدالعليا خيرمن اليد السفلى » أى المعطى خير من السائل ، ودعا إلى العمل والجهاد فى سبيل العيش : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، وقدس حرمة الأموال والأعراض : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

وحاربه فى المجتمع ، ليقضى على الرذائل والشرور ، وعاقب عليها عقابا صارماً . وأمر بشتى الفضائل الاجتماعية ، التى تكسب المجتمع قوة وأمنا وطهراً وخيراً ، وشرع قاعدة اجتماعية مثلى ، تصور لك آداب الاسلام وأصول دعوته ، وتبين لك إلى أى مدى كان التضامن الاجتماعى يسود الطبقات والجماعات فى ظلال الاسلام ، وهى كما يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وكما جاء فى الأثر : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . وهذا نظام اجتماعى أساسه حب مصلحة الغير ، والمحافظة على حقوق الناس ، وتعود الايثار والبر والخير والرحمة والتعاون ، ومقت الاثرة ، وبهذا وثق الصلات بين الأغنياء والفقراء ، كما قضى على العصبيات ، ونشر الانصاف والعدالة والحق والمساواة بين الناس جميعاً ، ودعا الرأى العام الذى ربى على أصول دعوة الاسلام إلى أن يكون قوياً جريئاً ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، بل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقف فى وجه الظلم والطغيان .

وحارب الضعف فى الأمة ، فجعل راعيها هو القوام على حقوقها، والأمين على مصالحها ، والذائد الحامى النمار عن أحسابها وشرفها وكرامتها ، والحاكم العادل الذى ينشر الأمن ، ويبعث الرحمة ، ويسوى بين الناس ، ويعطى كل ذى حق حقه .

ودعا الناس - مع دعوته إلى تكوين الأخوة الاسلامية القوية - إلى إخوة إنسانية عامة شاملة ، لا فرق بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

وهذا كله هو السبب فى مجد المسلمين الأولين وحياتهم ، إذ آمنوا بهذه المبادىء ، ونهجوا على طريقها فى حياتهم وآدابهم وسلوكهم ، وهو السبب فى انتشار الإسلام بسرعة خارقة للعادة فى جميع الأقطار والأمصار .

حقـائق واضحـــة

(١)

إن أكثر المذاهب القديمة والحديثة قامت على الدماء والأشلاء، وكل النظم التى سادت - وتسود اليوم - العالم قد ذهب ضحيتها ملايين البشر .. أما الإسلام، وأمره فى قيامه وفى ذيوعه فى العالم كله، فعلى العكس من ذلك : يقول هانوتو :

« لما بعث الشرق من مرقده عاش فى الاسلام، وانتصر بالاسلام، ولا يزال يحيا اليوم وغدا فى الاسلام » .

وأضيف إلى ذلك أن الإسلام إنما قام على السلام والحرية : حرية الدين، وحرية التملك والكسب، وحرية الطمأنينة على النفس والمال .

وهو ليس ثورة طبقة على طبقة، وصراع جماعة لهدم أخرى .. ولم يكن قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادىء القوة والحق والخير والجمال .

إن الإسلام رسالة إلهية، لا مبدأ اخترعه بشر، وهو رسالة الحرية والاخاء والمساواة والعدالة والإصلاح والمدنية، إلى العالم كافة، والبشرية بجميع طبقاتها .

لقد كانت مبادىء الإسلام نفسها، وروح العدالة المطلقة والمساواة والإخاء التى سادت المسلمين الاولين بإيحاء قوى من دينهم،

هى السبب الأكبر فى انتشار الاسلام بين الأمم . . وكانت حرية الأديان محرمة إلا فى بلاد الاسلام . إن سرعة انتشار الاسلام وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، « وبالجملة لأن فطر البشر تطلب دينا ، وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها »[1] .

ولا داعى للاضافة فى هذه الحقيقة التاريخية فإنها معلومة مشهورة ، ولكنى أقصد من ذلك الرد على مفتريات المبشرين ودعاتهم ، الذين يضللون عقول الجماهير ، ويقولون : إن الاسلام قام بالسيف ، وإن الجنود المحاربين هم الذين حملوه إلى جهات الدنيا. وهذا افتراء على الحقائق ما بعده من افتراء. فدعوة الاسلام هى التى كانت تدعو إلى نفسها بنفسها . والاسلام معناه السلام ، وهو حامى الحريات ، ومحرر الشعوب والجماعات ، والتاريخ الاسلامى شاهد صدق على أن مبادئه هى السر الأكبر فى انتشاره ، وإن كان المسلمون حملوا السيف ليدافعوا به عن أنفسهم ، وليحموا العقيدة من عدوان المشركين والوثنيين ، ولم تهاجم الجيوش الاسلامية امبراطوريتى الروم والفرس إلا للقضاء على المناورات العسكرية الخفية التى كانت تريد أن تمهد للإطباق على الجزيرة العربية ووأد الدين الجديد فيها .

(١) رسالة التوحيد ص ٢١٧ - محمد عبده - طبع المنار ١٣٦١ هـ بمصر .

إن كثيراً من المذاهب الحديثة والقديمة على السواء قامت على الثورة والحرب والكفاح وصراح الطبقات ، ولكن الاسلام لم يكن فى حاجة إلى شىء من هذا ، والمسلمون كانوا دعاة خير وعدل وإنصاف ورحمة وبِر وتعاون ، ولاشك فى أنه لاسبيل إلى التوفيق بين مؤمن بحرية الفكر والعقيدة ، وكافر بها لا يثق بمبادىء الخير والتكاتف والسلام ، بل يحنق عليها ويبغضها .

(٢)

وإذا أردنا أن نوازن بين الاسلام والمذهب المادى - مثلا - فى قيامهما وشأنهما ، هالنا الفرق بين دين شعاره الاخاء والوحدة والأمان ، ومذهب يصطنع العداء بين الناس ، ويعتمد على التفاوت بين الطبقات ، ليثير الحقد والبغضاء فى نفوس بنى البشر ، وليقول لهذا أنت غنى ولذاك أنت فقير ، والغنى شر والفقر موت ، وليدفع الفقير إلى أن يقاتل بالسيف أخاه الغنى ليستحوذ على ماله وثروته ، يدلك على ذلك التاريخ ، فقد بدأت المادية لأول مرة عام ١٨٨٣ حين شكل بليخانوف الجماعات الماركسية ، ومنها جماعة تحرير العمل التى تعتنق آراء ماركس وإنجلز الداعية إلى أن تسير الطبقة العاملة إلى أهدافها بالقوة والثورة ، وقد سبق ذلك صدور قانون تحرير رقيق الأرض عام ١٨٦١ فى عهد القيصر إسكندر

الثانى بتأثير كتابات المفكرين ودعوتهم إلى الاصلاح ،من أمثال تولستوى وجوركى وبوشكين .

وفى عام ١٨٩٨ نشأ حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا داعياً إلى تعاليم ماركس ، وفى ١٩٠١ قام الحزب الاشتراكى الثورى . وفى عام ١٩٠٣ أنشأ لينين الحزب الشيوعى البولشفى ، ومن ذلك الحين ظهرت البولشفية مدرسة فكرية وحزباً سياسياً ينادى باستخدام القوة والعنف لخدمة أغراضه .. وخلال الحرب العالمية الأولى - وكانت روسيا تقاسى أهوال الحرب وويلاتها - أخذت المادية تستخدم السخط العام لاثارة حرب الطبقات ، فقامت فى أوائل مارس ١٩١٧ ثورات وحروب أهلية مدمرة بين الطبقات ، وفى منتصف مارس قبضوا على القيصر نقولا الثانى ، وفى اليوم الثانى أعلنوا الجمهورية ، وأخذوا بعد ذلك فى ذبح الأغنياء ، واستصفاء أراضى كبار ملاك الأرض ؛ وتسليم المصانع والمناجم إلى العمال ، وقامت الديكتاتورية المادية الطاغية ، وأخذوا يسلبون الملاك محاصيلهم ومتاجرهم ومصانعهم باسم الثورة ، حتى المنازل فى المدن ، ونفذوا مشاريعهم الاقتصادية بقوة السلاح والارهاب ، وعاملوا طبقة الفلاحين الأثرياء « الكولاك » بدون شفقة أو رحمة كما يقول المؤرخون

(١) ٢٤و٢٥ الدستور السوفيتى لفؤاد محمد شبل — طبع القاهرة .

المحايدون[1] فحكموا عليهم بالموت أو بالتشريد فى سيبيريا وغيرها، وقامت المذابح الهائلة — باسم الاصلاح — فى كل مكان، إذ نبعت عن فكرة آمن بها الماديون إيماناً عميقاً: فكرة صراع الطبقات، واستخدام القوة المسلحة للقضاء على خصومهم فى الرأي؛ ويصور هذه الفكرة زعماء المادية الروحيون والسياسيون، يقول إنجلز: «إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات»[1]، ويقول ماركس: «صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة التى هى وسيلة لالغاء جميع الطبقات[3]». وهذه النظرية يحاربها الاسلام حرباً شعواء، لأنها تفسد الأمن والسلام، وتقضى على الاخاء الانسانى، وتجعل بعض الناس أعداء بعض، وتدعو إلى نهب بعضهم بعضاً، وتولد الشحناء والحقد فى المجتمع، والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم وكلام الرسول؛ بل إن صراع الطبقات لم تؤمن به أية جماعة فى عصور الجاهلية الأولى، ولا يدعو إليه اليوم إصلاح، فهذا هو الاصلاح العام فى الديمقراطية يسير بتلك الأمم إلى المساواة والعدالة الاجتماعية دون وجود صراع طبقى؛ على أن

(٢) ٣٧ المرجع السابق. (٣) ص ٤٦ المرجع نفسه، وصفحة ٧١ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبع القاهرة ١٩٤٨.

مصالح الجماعات الإنسانية لا تعارض بينها على الحقيقة ، وإنما بينها التعاون والانسجام ، والإسلام يوجب أن يعيش الفقراء والأغنياء بعضهم بجوار بعض إخوة متحابين ، وقد دعا إلى التعاون التام بين الطبقات .

ولقد أعلن المؤتمر الأول الذى عقد فى موسكو فى ٧ مارس ١٩١٩ تأليف الدولية المادية الثالثة (الكومنترن) لنشر الشيوعية فى العالم . وتحويل العمال فيه إلى المادية ، وإثارة الاضطرابات ، وإيجاد القلاقل فى المحيط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الدول ، وقد ألغت روسيا الدولية المادية فى ٢٢ مايو ١٩٤٣ ، تقرباً إلى الحلفاء ، ولكن الدولية المادية الثالثة استعادت نشاطها الآن ، وهذا ما يبدو بعد إنشاء مكتب الاستعلامات الشيوعى (الكومينفورم) فى أكتوبر ١٩٤٧ وآثار ذلك واضحة فى إثارة الطبقات .

وكتاب « مشاكل اللينينية » ظل المرشد الأعلى فى شئون المبادىء والأفكار المادية ، ولا يترك هذا الكتاب أثرا للشك ، فى اعتقاد مؤلفه ، فى أن من حق الكتلة العاملة المظفرة — الكتلة الشرقية — بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لاشعالها ، وأن تستخدم القوة العسكرية إذا لزم الأمر ضد الطبقات المستقلة والدول التى تناصرها .

وحكم العقل والأديان عامة والاسلام خاصة على نظرية صراع الطبقات واستخدام القوة الثورية ضد الشعوب المسالمة لا يخفى على إنسان .

إن المادية لم تكن لتقوم لها قائمة فى بلادها لولا هذه المجازر الهائلة ، وعدد الضحايا الضخم لها فى بلادها ولولا سجون الاعتقال والنفى إلى مجاهل سيبريا ، والبطش بخصومها فى الرأى ، والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة ، ثم لولا الدعاية والأموال الضخمة التى تبذل لنشرها .

أما الاسلام فلا يمكن أن يشك عقل فى أنه إنما قام على السلام والمحبة والرحمة والخير والتعاون بين الناس ، وعلى الصدق فى المبادىء ، والاقناع بالحجة ، وسمو مبادىء الدعوة وأهدافها واتجاه هذه الرسالة الالهية إلى غرس بذور الوئام والوحدة بين جميع الأمم والشعوب ، وعملها لنشر الرفاهية والسعادة بين بنى البشر كافة .

« الم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام » .

١ — ٤ سورة آل عمران

الديمقراطية بين الإسلام والمادية

(١)

تصريف شئون الدولة على أساس نظام شورى صحيح ، أو حكومة الشعب للشعب ، أو تكافؤ الفرص ، هو الديمقراطية التى لا يتحقق لها وجود إلا بالمساواة التامة بين الناس , والاعتراف الكامل بحقوق الإنسان ورعايتها ، والإيمان بالحرية الفردية ، وبأن الدولة وجدت من أجل الفرد ، وبضرورة إنماء شخصية الإنسان فى الحياة .

والديمقراطية لا وجود لها فى المجتمع المادى ، فالحريات مصادرة ، والمساواة معدومة ، حتى فى الاقتصاد وأجور العمال ، واستبداد الدولة الجائر بالفرد لا حد له . والحكومة تسير على النظام الفردى الاستبدادى[1] ، ولست تجد هناك « مجتمعا عماليا » حتى ولا ديمقراطية اقتصادية[2] .

أما فى الإسلام فالأمر على النقيض : حرية ومساواة وعدل بين الناس ، الحكومة شورية دستورية أساسها مشيئة الشعوب ، والحاكم مسئول عن أعماله ، وحقوق الانسان فى الحياة والحرية والأمن والتعليم والتأمين الاجتماعى وسوى ذلك مصونة . إن الاسلام يؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبحكم الشعب للشعب ، وبأن

(١) ٤٢٣ الدستور السوفيتى .
(٢) ٤٨٠ آثرت الحرية .

الحكومة وجدت لخدمة الفرد وللعمل على رفاهيته ، وبالحرية الاقتصادية . روحه التسامح وحرية الرأى للأفراد والجماعات ، ومحاربة شتى ألوان التمييز بين الناس .. وذلك هو أساس الديمقراطية الحقة .

(٢)

والحرية — وهى دعامة الديمقراطية والحياة الانسانية المتحضرة — ليس لها قيمة كبيرة عند الماديين ، لأنها فى رأيهم تلهى الجماعات عن الالتفات إلى الظلم الاقتصادى[1] ، المادية تحاول تحقيق المساواة المزعومة بإلغاء حرية الانسان ، فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته .

حرية الفكر معدومة ، فالناس يفكرون على النمط الذى يعجب الحزب الحاكم ، وليس هناك مجال لتفكير مستقل . وحرية الصحافة والنشر مقيدة ، ولا يباح دخول صحيفة أو كتاب أجنبى معاد فى فكرته المادية[2] . والحرية السياسية مفقودة ، إذا ليس هناك إلا حزب واحد وحاكم واحد وانتخابات صورية لاتنافس فيها . . والحرية الدينية معطلة .

والحرية الاقتصادية لاوجود لها ، فالمصانع والمزارع وأدوات

(١) ١١٩ المذاهب السياسية المعاصرة
(٢) ٩٤ الشيوعية فى الميزان

الإنتاج ومرافق الثروة ملك للدولة ، والفرد أجير عندها نظير إطعامه ، لا رأسمالية ولكن هناك الرأسمالى الأكبر الذى لا يقاوم وهو الدولة ، مما ينعدم معه التنافس الاقتصادى الذى هو أساس الحرية الاقتصادية .

والحرية الشخصية محجور عليها لأن الحزب يهيمن على حريات الناس ، وسلطان البوليس السرى لاحد له ، وللقاضى أن يحكم بإعدام من يرى أنه خطر على الأمن العام ولو لم تقم الأدلة على ذلك ، والعامل فى المصنع لا يملك أية حرية ، وعليه أن يعمل ، لأن من لا يعمل لا يأكل ، وفى عام ١٩٣٠ صدر قانون ربط العمال بمصانعهم ، ومنعهم من مغادرة مكان عملهم إلا بإذن خاص ، وبعد ذلك بعامين صدر قانون بطرد العمال الذين يتأخرون عن العمل ولو يوما واحدا دون سبب كاف[1] . وجاء فى قانون سنة ١٩٣٩ للعمل أنه إذا تأخر العامل عن عمله أكثر من عشرين دقيقة فإنه يقدم إلى النيابة المحلية ويحاكم ، فإن أدين حكم عليه بالسجن أو السخرة [1] ، ونص على عقوبة الذين يتسترون على مجرمى التأخير ، ويجب على الفرد الحصول على إذن خاص لقضاء إجازة ولو يوماً واحداً بعيداً عن بيته ، والرحلة خارجة البلاد ممنوعة ولا يصرح بها إلا للمبعوثين فى مهمة رسمية ، وفرض عام ١٩٣٢ نظام البطاقات الشخصية التى تتضمن شتى

(١) ٩٨ الشيوعية فى الميزان

المعلومات عن كافة الشئون التى يهم البوليس السياسى معرفتها عن الفرد، والستار الحديدى مطبق حول البلاد التى تدين بالمادية. والشعب فى عزلة تامة. وقد قام الماديون بحركات تطهير عامة كثيرة، لإبادة خصومهم فى الرأى، وذهبوا بزعماء ومفكرين وكتاب إلى مجاهل سيبريا وسجون الأورال ومعتقلاتها. ولكى تعرف كيف يعاملون معارضيهم فى الرأى، اقرأ مايقول دافيدك نيقوليفكسى فى كتابه «لا شيء سوى سلاسلهم»: إن فى بلاد البلشفية اليوم ١٤ مليونا من العبيد فرضت عليهم السخرة، ويعيشون فى حظائر تحيط بها حواجز تعلوها الأسلاك الشائكة، ويحرسها رماة يرابطون فى أبراج مزودة بالأنوار الكشافة القوية، وأسراب من الكلاب لمطاردة الفارين من الأرقاء، وهم يؤدون أشق الأعمال وأخشنها وأفدحها، وهؤلاء من الذين يعارضون البلشفية أو ينقدونها أو يشتبه فى أمرهم، ومن رجال الدين الذين يعرقلون دعوة الإلحاد»(١). وما أصدق مايقول أندرية جيد: «إن المادية لا تؤمن بشيء اسمه الحق».

فأين هذا من حماية الإسلام للحريات، وإطلاقه لها وتحريمه الحجر عليها: لحرية الفكر والرأى، وحرية التصرف والعمل، والحرية الشخصية والحريات العامة وحرية الاجتماع والخطابة، والحرية الثقافية والسياسية والدينية، كل هذه الحريات

(١) ٩٨ الشيوعية فى الميزان.

قد قررها ودعا إليها وحماها الإسلام وكتابه الكريم ، وأبطل الاسلام الحكم الاستبدادى ، وأن الحاكم أو الدولة ظل الله فى الأرض ، وليس للحاكم فيه أكثر مما للمحكوم ، يقول عمر لعامل له : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» ويقول : «من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه .. إن رأيتمونى على باطل فقومونى» ، ويقول الرسول : «الامام راع ومسئول عن رعيته» .

ولقد حرر الإسلام الإنسان من الجهل والجمود والفاقة ، وحرر المرأة من جور الرجل ، وسواها به فى الحقوق والواجبات؛ ودعا إلى تحرير الأرقاء ورفعهم إلى منزلة السادة ، وحرر الطبقات من طغيان المستبدين ، وحرر الروح الإنسانى من الشهوات والترف والمادة .. إنه بحق دين الحرية والكرامة الإنسانية فى الحياة

(٣)

والمساواة ركن من أركان الديمقراطية ، والمادية تزعم أنها تؤمن بالمساواة وتطبقها ، وتتخذ من ذلك وسيلة لدعايتها الجوفاء ، وتسرف فتدعى أنها تحقق للإنسان المساواة الاقتصادية ، ولعل كلام ستالين فى خصومه عام ١٨٣٤ خير رد على ذلك ، قال : «إن هؤلاء القوم يحسبون أن المادية تستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل فرد فى المجتمع ، ألا ما أسخفه من رأى يخرج عن فكر

مشتت ، وإن المساواة التى نادوا بها هى التى أضرت بضا عتنا أكبر الأضرار ، . . وبينما كانت المــادية تعمل لإلغاء الطبقات والمساواة فى الأجور ، إذ نحن نرى اليوم هنـــاك عدة طبقات متفاوتة الدخول ، وهى طبقة المفكرين وعددها نحو ١٣ ./٠ من السكان ولها نحو ٣٢ ./٠ من دخل الدولة ، وطبقة الصناع وعددها ٢٤ ./٠ ولها من الدخول القومى ٣٢ ./٠ وطبقة الزراع وعددها ٥٤ ./٠ ولها ٣٢ ./٠ من الدخول ، وطبقة المسخرين الذين لم يرضوا عن الشيوعية وعددها ٩ ./٠ ولها فى الدخول ٣ ./٠ . . أما المساواة الاجتماعية فتتلاشى هناك رويداً رويداً ، فقد فرضت التحية العسكرية وأعيدت الرتب فى الجيش ، وأعيد لقب وزير ومجلس وزراء ، وزادت ألقاب ستالين وخلفائه . وسيطرت طبقة واحدة هى طبقة العمال على سائر طبقات المجتمع تفنيدا لآرائهم النظرية فى المساواة .

أما المساواة فى الإسلام فحدث عنها ولا حرج ، مساواة كاملة بين الناس جميعاً ، بين المرأة والرجل ، والصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ، بين جميع الطبقات والجماعات ، بين الأغنياء والفقراء ، مساواة يحميها الإسلام وكتابه ورسوله وخلفاؤه ، ولا تعرف أى لون من ألوان التمييز بين الناس ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبده معه راكب ، وولى رسول الله بلالا الحبشى على

المدينة وفيها سادات الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن ، وقال : « ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » ، وأذن الخليفة عمر لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل سادة قريش ، وألغى الإسلام الفوارق والامتيازات ، ووزع الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء وصار الحاكم والمحكوم جميعا على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، ويؤيد مبدأ المساواة فى الإسلام عدالة اجتماعية قوية ، أيدها ودعا إليها ، وتقوم على الأخوة والتكافل العام ، وأساسها التحرر الوجدانى ، وتتخذ من الضمير البشرى والتشريع القانونى وسائل لتحقيقها وإذاعتها بين الناس . فأين هذا من الفلسفات الحديثة التى تتنكر لمبدأ المساواة ؟ .

(٤)

والمادية — التى تنزل خصومها فى الرأى منازل العبيد ؛ وتحبذ الثورة وصراع الطبقات ، وتعمل على إثارة القلق والاضطراب فى الجماعات والشعوب — لا تعرف معنى الإخاء ، فأين هذا من الإسلام الذى أكد الأخوة الإنسانية ؛ وألغى نظام الطبقات والعنصرية الكاذبة والعصبيات الحمقاء ؛ وجعل المؤمنين إخوة فى الدين ، والناس جميعا إخوة فى الإنسانية ، حتى الخدم

جعلهم الرسول إخوان المخدومين . فقال : « إخوانكم خولكم » .
كل هذا فى عصر كان يرى — كما يرى أرسطو وأفلاطون من قبل — حرمان الموالى والصناع من الحقوق المدنية لانحطاط ما يمارسون مهن ، وكما رأى أرسطو من أن الله أوجد البرابرة ليعيشوا أرقاء ، وسلب ثروتهم من الأعمال الشريفة .

كل هذا دليل على أن الإسلام أثبت قدما فى الديمقراطية ، وأصلح مذهبا، وأعدل رأيا فيها ، وأقوم سبيلا إلى الإصلاح العام، وأنه مامن دين أو مذهب يبلغ فى ذلك الباب مابلغه الإسلام .

حقوق الإنسان فى الإسلام والمادية

حقوق الإنسان عند الماديين مستمدة من الجماعة ، وإرادته جزء من إرادتها ، وليس للفرد كيان مستقل عنها .

تقرر المادية للإنسان حق العمل ، ولكنها تحجر على العامل وتربطه بمصنعه ، وتمنعه من تغيير العمل والمصنع . . وقوام نظام الأجور فى بلادها « الأجر بالقطعة » الذى تنفر منه نقابات العمال فى العالم . . والإسلام الذى شرع المضاربة والشركة والمساقاة والمزارعة والإجارة وسواها من أبواب العمل ، وحمى العامل ورعاه ، وحافظ على حريته وأجره ، وحث الناس على العمل ، إنما يهدف إلى القضاء على البطالة والفقر بين الناس .

وتقرر المادية حق الراحة الأسبوعية للمواطنين . ونحن نعلم أن يوم الجمعة عيد أسبوعى للراحة والاستجمام فى الإسلام ، الذى يحترم أيام الراحة كذلك عند غير المسلمين .

وتقرر حق الضمان الاقتصادى بالحصول على تأمين مادى . عند الشيخوخة أو المرض ، أو العجز عن العمل ، وقد سبق المسلمون إلى تطبيقه فى بلادهم منذ عهد بعيد ؛ فكان عمر يصرف للفقراء مسلمين وغير مسلمين حاجتهم من بيت المال — وكان يعتبر الأطفال عاجزين عن العمل ويفرض لكل مولود مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتى درهم ، فإذا بلغ زاده ، ويجعل أجرة رضاع الطفل ونفقته من بيت المال ، وكان يقسم ما فى بيت المال على الناس بحسب بلائهم فى الإسلام ، حتى استغنى الناس وأبوا أخذ الصدقات

ولم يوجد فقراء فى عهد عمر بن عبد العزيز يأخذون الزكوات ، فاشتريت بها رقاب وأعتقت . ورأى بن الخطاب فى طريقه إلى دمشق قوما مجذومين من النصارى ، فأمر أن يجرى عليهم القوت من بيت المال . على أن نظام الضمان الإجتماعى لم يبلغ فى دول الكتلة الشرقية مابلغه فى الغرب وأمريكا .

وتقرر المادية للإنسان حق التعليم ، وقد سبقها الإسلام إلى ذلك منذ أجيال ، ويؤثر عن رسول الله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وكان التعليم مجانيا فى شتى مراحله فى بلاد الإسلام ، مع صرف الغذاء والكساء للطلاب .

وتقرر حق المرأة فى التساوى مع الرجل وهو حق سبق به الإسلام .

إن الإسلام ليحمى حق الإنسان فى الحياة والحرية والعدالة والإنصاف والمساواة والأمن ، وحقه فى التعليم وحقه فى الحكم الدستورى ، وفى كل جانب عادل من جوانب الحياة .

حرية وإخاء ومساواة

١ – حرية العقل والفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل.
والحريات العامة ، والحرية الشخصية ، كل هذه الحريات قد كفلها ووعاها الإسلام وكتابه الكريم ، ولعلك قرأت كلمة عمر الخالدة لواليه عمرو بن العاص : « كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

لا يقيد الإنسان أى قيد من القيود ، ولا يحجر عليه رجال الدين ، ولا يحول بينه وبين التصرف أب أوجد ما دام قد بلغ سن الرشد ، ولا يمنعه من التصرف فى ماله أحد إلا بأسباب شرعية وفى ظروف خاصة ، لكل فرد أن يبدى رأيه فى سياسة الحاكم ويناقشه الحساب ، ولعلك أيها القارىء تذكر كلمات عمر المأثورة : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . وإنى وليت عليكم ولست بخيركم » ، بل لعلك تعرف مناقشة امرأة له فى فكرة تحديد المهور ، وردها عليه ، وقوله لها وقد ذكرته بالحق : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، والصلة بين الرؤساء والمرؤسين صلة الأب بأبنائه والراعى برعيته : « الإمام راع ومسئول عن رعيته » ، وأمور الناس تحكم بالشورى : « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، حتى حرية الدين الذى نص عليها القرآن الكريم بقوله : « لا إكراه فى الدين » مادام هذا الدين الذى يؤمن به الإنسان دينا سماوياً صحيحاً . أما الشرك

والوثنية فلا يعترف بهما الإسلام لأنهما انتكاس فى الإنسانية ، وطمس للفطرة الإلهية ، وقضاء على كرامة الإنسان وعقله ووجوده الفكرى والروحى والأدبى والاجتماعى .

أين هـــذه الحرية الآن فى القرن العشرين ، عصر الكهرباء والذرة والعلم ؟ أين حريات الأمم السياسية وحريات الرأى والفكر والحريات الشخصية ؟ إنها أوهام وخيالات لا وجود لها فى كثير من الأحيان رغم أن المفكرين قد سئموا من الدعوة إليها ، ورغم حماية القوانين العامة للهيئات الدولية والأمم المتمدينة لهذه الحريات .

ليست الحرية فى الإسلام حرية فى الهدم ، ولكن فى البناء ، إنها الحرية التى لا يحدها شىء إلا توجيه الضمير ، ورقابة الروح الدينى فى النفس ، ونزعات الفطرة الإنسانية فى الانسان .

حرية عامة شاملة تعم الحاكم والمحكوم ، وتشمل الشعوب الصغيرة والكبيرة ، ويطلقها الإسلام لكل مسلم ومسلمة، وتتناول الشعب الفاتح والشعوب المغلوبة على أمرها على السواء، فأين هذا من الحرية عند الغرب ؛ التى لا يتمتع بها إلا السادة المستعمرون ، أما الشعوب المستعبدة فتعيش فى أشد استعباد، وأفظع ضغط على حريات الناس الخاصة والعامة فيها .

٢ — وأما الإخاء فى الإسلام فهو إخاء عام شامل، المؤمنون جميعا بل الناس كافة إخوة فى الله وإخوة فى الإنسانية، إنما المؤمنون

إخوة، حتى الخدم جعلهم رسول الله صلوات الله عليه إخوان المخدومين فقال: «إخوانكم خولكم» .. ألغى الإسلام نظام الطبقات، وألغى العنصرية الكاذبة والعصبيات الحمقاء، وألغى نظام الألقاب، «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، «والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، «ومثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد»، «الناس من آدم وآدم من تراب».. الحسب والنسب والمال لا تغنى عن الإنسان شيئا. وهل فى ذلك أبلغ من قول رسول الله صلوات الله عليه لابنته فاطمة: «إعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا»، وقوله صلوات الله عليه: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء»، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». فأين هذا مما تعمله أمريكا الديمقراطية فى رعاياها اليوم: البيض لهم كل شىء فى الدولة، والزنوج السود لا حق لهم على الإطلاق، بل ليسوا مثل أولئك فى البشرية وفى الكرامة الأدبية فى الحياة؟.

٣ ـــ وأما المساواة فى الإسلام فهى مساواة كاملة، بين المرأة والرجل والصغير والكبير، والمحكوم والحاكم، بين جميع الطبقات والجماعات بين الأغنياء والفقراء. مساواة لا تعرف فيها ظلما ولا عنتا ولا آثاما، القانون الإسلامى يشمل الجميع لا فرق بين إنسان وإنسان، والعدالة تطبق على الجميع بلا محسوبية ولا استثناء، يقول رسول الله: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».. ووزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على حد سواء؛

وفتح الإسلام آفاق الوصول إلى أسمى الغايات أمام المتنافسين من كل جنس ولون وأمة ، حتى لقد ولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وبلال عبد حبشى اشتراه أبو بكر وأعتقه ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن وهو من صميم الفرس فلما مات أسندها إلى ابنه، ويقول رسول الله فى سلمان الفارسى الأعجمى : سلمان منا أهل البيت .

وقد سار خلفاء محمد على نهجه فى المساواة التامة بين الناس والمسلمين كافة ، قال الحسن البصرى : حضر إلى باب عمر سهيل ابن عمرو بن الحارث بن هشام ، وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس ، وصهيب وبلال من أولئك الموالى — أى الذين كانوا عبيداً قبل الإسلام ، وهم من عناصر غير عربية — وقد شهدوا بدراً ، فخرج عمر لأولئك الموالى وأخر السادة ، فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ؟! فقال سهل وكان رجلا حصيفاً : إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ .

وألغى الإسلام الامتيازات الفردية والطائفية ، ومحى مابين الطبقات من الفروق والحقوق والواجبات ، ووحد الشريعة ، وأخضع لها الكافة . لافرق بين حاكم ومحكوم فى عصر كان الناس فيه يؤمنون بأن الحاكم ظل الله فى أرضه .. عدالة تامة بين الجميع،

حتى لقد شكا يهودى على بن أبى طالب فى خصومة فأحضرهما عمر أمير المؤمنين ، وقال عمر لعلى : قف يا أبا الحسين بجانب خصمك فبدا التأثر على وجه على ، فقال له عمر : أكرهت يا على أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيتك لم تسو بينى وبينه ، إذ عظمتنى بالتكنية ولم تكنه ، ورأى عمر رجلا وامرأة على فاحشة فجمع الناس وخطبهم وقال : ما رأيكم إذا رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فنهض إليه على قائلا : « يأتى على صحة قوله بأربعة شهداء وإلا فيقام عليه حد القذف ».

إن المساواة تامة فى كل شىء بين الناس عامة فى الإسلام ، مساواة فى الحقوق والواجبات وفى الكرامة وأمام القانون ، لأن الناس خلقوا متساوين فى حكم الله ، « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ويقول عمر : « أما والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ؛ ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده إذن لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلوات الله عليه يقص من نفسه » . ويقول الشيخ محمد عرفة من كلمة له :

المساواة فى الإسلام مساواة بين البشر لا فرق عنده بين أبيضهم وأسودهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وخاصتهم وعامتهم ، فكلهم

لآدم وآدم من تراب . حتى العرب الذين هم حاملوه وناشرون له ، الذين كانت لهم ولاية الحكم لا امتياز لهم على غيرهم من الأمم ، « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » وقد قرر الإسلام مبدأ المساواة في غير ما آية :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فهو يقول : إنه جعلكم شعوبا وقبائل للتعارف فكيف تجعلون ذلك سببا للتناكر والعصبية الممقوتة الذميمة ؟! .

وقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » . فهو يذكرهم بأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، فهم مهما بعدت ديارهم ، واختلفت وتباينت ألوانهم إخوة وذو رحم ، ولعل وصايته بالأرحام بعد ذلك وصاية ببني الإنسان جميعاً ، إذ قد أثبت لهم قبل ذلك قرابة ورحما .

جعل الإسلام المساواة مبدأ . وأخذ يصدر عنها في كثير من الوقائع والأحكام ، قال قتادة : كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان . فكان الحي إذا كان فيهم عزة ومنعة فقتل عبد قوم آخرين عبدا لهم قالوا لا نقتل به إلا حرا ، تعززا لفضلهم على غيرهم في

أنفسهم ؛ وإذاقتلت لهم امرأة قوم آخرين قالوا لا نقتل بها إلا رجلا. فأنزل الله : «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ». نهاهم عن البغى والعدوان وألا يقتلوا غير القاتل ، وألا يعتدوا على غيرهم فيقتلوا بعبدهم حرا وبالمرأة منهم رجلا ، وبالحر الواحد منهم رجلا ، وبالحر الواحد منهم أحراراً كثيرا ، وأنزل لتقرير هذا المبدأ : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » . وفى هذه الآية تقرير المساواة فى النفوس والأعضاء والجوارح .

لقد سوى الإسلام بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وجعلهم سواء أمام الشريعة ، فالشريعة ماضية عليهم جميعهم .

روى أن امرأة من بنى مخزوم سرقت فقالت قريش : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أى ليضع عنها الحد ، ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلم رسول الله ، فقال الرسول : أتشفع فى حد من حدود الله ؟! ثم قام فخطب فقال « يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم لأنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

هذه مساواة بين الشرفاء والضعفاء فى الحدود فلا توضع عن شريف لشرفه إذا ارتكب موجبها ، وبين الرسول أن التفرقة بين الضعفاء والشرفاء فى الحدود كانت العلة فى ضلال الأمم السالفة البائدة .

ويقول عبد الرحمن عزام يصف المساواة فى الإسلام من كلمة له :

أشير إلى معنى أساسى من معانى الإسلام هو من أعظم مبادئه فى مقاومة الشرور الاجتماعية ، ذلك هو مبدأ المساواة الذى يسيطر على تصرفات المسلمين فى عباداتهم ومعاملاتهم وآدابهم ، فالمسلمون جميعاً عباد الله يسعى بذمتهم أدناهم وأفضلهم عند الله أتقاهم .

ذلك المعنى متى رسخ فى أذهان الملوك والأمراء والحكام ، والعامة والفقراء والأغنياء والملاك والعمال ، كما يريده الإسلام ، استحالت معه الفرقة الاجتماعية وما يترتب عليها من حسد وبغض وخلاف وشر : ثم قتال وفساد للمجتمع ، بتسلط الأقوياء على المستضعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوياء .

إن مبدأ المساواة شائع الآن بشرائع مصطنعة ومظاهر فى القول والقانون ، ولكنه لم يستقر فى النفوس والضمائر ولم يختلط اختلاطا كليا بجميع مصادر الحياة ومواردها كما هو فى الإسلام .

فالمسلم يحس فى قرارة نفسه أنه مساو لخادمه ؛ وأن الخادم

قد يكون أفضل منه عند الله ، ويخشى أن يصيبه شك فى هذا مخافة غضب الله ، ويخشى أن يصيبه شك فى هذا مخافة غضب الذى خلق الناس من نفس واحدة متساوين أحراراً .

فالمساواة بهذا المعنى العظيم هى أكبر الضمان ضد الشرور والآفات الاجتماعية التى زلزلت الأمم ، والتى قد تكون أساساً لأكثر هذه الحروب المهلكة للبشر .

فالديمقراطية الاسلامية التى هى أساس الحكم الصالح والحياة السعيدة ، هى ديمقراطية لا شبيه لها ، وليست المظاهرة الخادعة من أشكال الحكم على تنوعها بواجدة مثل تلك الديمقراطية فإن أساسها فى الضمير ، فلو أنها استقرت فى الحياة الحالية واتخذت سبيلها الذى أراده الإسلام ، لكانت كفيلة بالقضاء على أعظم مصادر الشر وآفاته الاجتماعية » .

والفروق الطبيعية بين الناس من الذكاء والحسب والجاه والمال والعلم ، حاول الإسلام تخفيف أثرها ، بتقريب الطبقات بعضها إلى بعض ، وباشتراكية الإسلام العادلة فى الزكاة والضرائب وأموال المسلمين وردها على الفقراء ، وصرفها للساكين ، وبما فرضه الإسلام على العالم أن يرشد الجاهل ، وعلى الصحيح أن يواسى المريض ، وعلى الغنى أن يعطف على الفقير ؛ وعلى الكبير أن يرحم الصغير.

حرية وإخاء ومساواة لم يعرف للإسلام فيها نظير أو شبيه ، لأنه دين الحق والبينة والإخلاص ، الدين الذى جاء لإنقاذ البشرية والنهوض بها من الذلة إلى العزة ، ومن الجهل إلى العلم ؛ ومن الفقر إلى الرخاء ، ومن البداوة إلى الحضارة ، حتى لقد قال برناردشو : « لابد من أن تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الاسلامية قبل نهاية هذا القرن ، ولو أن محمداً بعث فى هذا العصر ، لقاد العالم إلى السلام والسعادة المنشودة » .

وقال توماس كارليل : « لقد أصبح من العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر ؛ أن يصغى إلى ما يقال من أن الدين الاسلامى باطل ، وأن محمداً خداع ومزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل تلك الأقوال السخيفة المخجلة ؛ فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ؛ ما زالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ؛ خلقهم الله الذى خلقنا » .
وقال تولستوى : «إن النبى محمدا من عظام الرجال المصلحين؛ ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى الحق ؛ وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام» .

ليست الثورة الفرنسية ، ولا مبادىء عصبة الأمم ، المتحدة ، ولا قرارات لجنة حقوق الانسان ، هى التى أذاعت هذه المبادىء ، ولكن الذى سبق فأذاعها ونشرها وطبقها تطبيقاً سليما قويا عاما ، هو محمد وشريعته الإسلام ، الدين الخالد الكريم ، من نحو أربعة عشر قرنا من الزمان .

الاشتراكية فى الإسلام والمادية

مطابع الإسلام
١٨ شارع عبد العزيز جاويش - عابدين
تليفون ٢٤٩٣٢ القاهرة

(١)

يستخدم لينين الاشتراكية والشيوعية بمعنى واحد، أما ماركس فيطلق على نظام الانتاج الموزع - مع توزيع حصيلته . وفقا لنوع وكمية العمل المنجز — المرحلة الأولى للشيوعية ، ولم يسمه بالاشتراكية ، وأطلق على النظام نفسه الذى توزع حصيلته وفقا لحاجات الأفراد « المرحلة العليا للمادية» .

والاشتراكية - اقتصاديا - تنادى بالملكية المشتركة لأدوات الانتاج مع اعترافها بدور النقود والأجور ، شعارها : « من كل وفقا لمقدرته والى كل وفقا للعمل المنجز » .

أما المادية نظريا فمبدؤها «من كل وفقا لمقدرته ، وإلى كل وفقا لحاجته » .

فالمادية تقول بحصول الفرد على نصيب فى الانتاج طبقا لحاجته والاشتراكية تجعل ما يخصه جزاء على الخدمات التى يؤديها[1] وينكر الاشتراكيون «صراع الطبقات» وفكرة الثورة كوسيلة لتحقيق مبادئهم [2] من حيث يؤمن بها الماديون ، وبمبدأ إلغاء الملكية الفردية وتأميم جميع المؤسسات ووضع أموال الأمة فى يد الحكومة ، والقضاء على التجارة الداخلية ، وقيام نظام السلع مقابل

---

(١) ١٩٦ النظام الاشتراكى — البراوى ١٩٥١ .

(٢) ١٩٨ المرجع .

بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجات معيشة ، وتطبق نظام الأجور الذى وضعه لينين، وتحتكر الدولة وحدها التجارة الخارجية، وتهيمن على النظامين النقدى والمصرفى ، وتطبق الملكية المشتركة بمنح الفلاحين الأرض على سبيل الإعارة المؤبدة يستغلونها على أساس تعاونى ، والعامل وحده له حق الحصول على دخل . ولما فشلت المادية فى توزيع الأجور وفقا للحاجة أخذت توزعها وفقا للانتاج. وهذه المبادىء فيها مغالاة شديدة، مما يجعلها جوراً اقتصادياً لاحد له ، وخنقاً للحريات قاتلا .

(٢)

إن الاشتراكية أنجح من المادية فى علاج الفقر والبطالة. وهى تؤمن بالديمقراطية وحرية الفرد مما يتلاقى مع مبادىء الإسلام الكريم الذى هو دين اشتراكى حقاً، بل هو المثل الأعلى للإشتراكية السليمة .

الاشتراكية فى الإسلام هى العدل والتعاطف والتكافل الاجتماعى وهى الإيثار والتضحية لخير الجماعة، وهى من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية وتؤمن بالضمير الإنسانى، ومن الجانب الاقتصادى تهدف إلى مقاومة الاستغلال فى شتى صورة، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الديمقراطية والشورى وحرية الرأى والمساواة ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط بها حقوق يجب أن تؤدى ويجب على الدولة أن تراقب أداءها، ومن

حيث الوسائل تنكر الثورة صراع الطبقات وتحرص على الأمن والسلام بين الناس، ولا تجعل الملكية والمال وسيلة للتمييز بين الناس وتحمى حقوق العامل والفقير والرقيق والخادم والمرأة، وتعمل للإصلاح العام والتعاون المثمر وتقرر التأمين الاجتماعى للفقراء والعاجزين، وتفرض الزكاة ضريبة لمحاربة الفقر، وتحرم الربا والاستغلال والاحتكار فى شتى صوره والترف والاسراف، وتحد من غلواء الرأسمالية. وتكره التفاوت المادى بين الناس، حتى لقد آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ووزع فىء بنى النضير على المهاجرين الفقراء، وتوصى بالاحسان والصدقة وتفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم الأثرياء القادرين على الكسب، وتشرع نظام الوقف والوصية والقرض والهبة والوديعة والاعارة، وتقرر فريضة الميراث، وتنهى عن الكسب الحرام، وتجعل الزوج مسئولا عن زوجته والأب عن أولاده، وتحض على العمل وعلى إيجاده، وتحترم العامل وحقوقه، وتسوى بينه وبين صاحب العمل، وتحافظ على الملكية الخاصة، وتقيم بجانبها ملكية عامة كما فى أرض الوقف والأراضى الخراجية، وتوصى بالفقراء وبالتكافل الاجتماعى، يقول الرسول: أيما أهل عرصة اصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى.

وقال ابن حزم: فرض على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفرائها، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم ولا

فىء سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم .

وتسلم اشتراكية الاسلام بمبدأ الضرائب التصاعدية ، ممايظهر لك فى نسب ضريبة الجزية ، وتراعى صاحب الأسرة ، فقد جعل الرسول للأعزب سهمامن الغنيمة وللمتزوج سهمين (١) ، ومنع على ابن أبى طالب الحجز على الضروريات وفاء للضريبة (٢)، وتسلم برقابة الدولة على الملكية بتقريرها مبدأ «من أين لك هذا ؟» الذى طبقه العمران، وأبى عمر أن يقسم أرض العراق حتى تبقى ملكا للمسلمين عاما . هذه هى الاشتراكية بأوسع معانيها وأصدق مدلولاتها .

والجشع الاقتصادى بكل مظاهره شىء لا يعرفه الاسلام ، ونظام الربا الذى أصبح متغلغلا فى جميع فروع حياتنا نظام فاسد لا يليق بالانسانية فى القرن العشرين ، وجدير بالأمم أن تفكر فى الأمر من جديد ، وان تخطو خطوة حاسمة لانقاذ العالم من ويلاته . والشـــركات التى تقوم على نظام الربا ، لابتزاز أموال الشعب ، شركات لا يقرها الاسلام الكريم. إن روح الجماعة وتيسير سبيل الحياة لكل إنسان ، لهما الينبوع الذى تخرج منه كل الأفكار

---

(١) ١٧ الإدارة الإسلامية — كرد على — ١٩٣٤ القاهرة
(٢) راجع ٣٨ المرجع .

الاقتصادية السليمة فى الاسلام . وأساس النظرية الاقتصادية فى الاسلام : اعط المال لغيرك ليهيء لنفسه الفرص الطيبة فى الحياة ثم استرده منه . وعلى هذا الأساس كانت شتى المعاملات الإسلامية الكريمة : وما أجل مما يقول الله تعالى : « وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

« ووصى بها إبراهيم ، بنيه ويعقوب ، يا بنى إن الله اصطفى
لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

سورة البقرة — آية

أمثلة من اشتراكية الإسلام

الزكاة :

فى السنة الثانية من الهجرة فرضت شريعة الزكاة ، وهى جزء قليل يخرجه الغنى من ماله الكثير ، فيجبر به قلوبا كسيرة ، ويسد حاجة من ضعف عن القيام بحاجة نفسه ، ويرفه عن الفقراء والمحرومين ، ومقدار نسبتها فى الغالب لا يزيد عن اثنين ونصف فى المائة .

وما أجل قول الله تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» ،وقوله فى وصف المؤمنين : «والذين هم للزكاة فاعلون» ، وقوله « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون، وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » ، وقوله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيض كثير من تأكيد شريعة الزكاة وتقريرها وإيجابها على الأغنياء للفقراء .

وهذا الركن الكبير من أركان الإسلام ، هو رسول السلام وداعى المحبة والتعاون والعطف بين الناس ، والمقوى للروابط بين الأفراد والطبقات ، والمستل لأحقاد النفوس وأضغانها . والمقرب بين القلوب : لتصير الأمة كتلة واحدة كالبنيان

المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . الزكاة أجل إصلاح اجتماعى أتت به شريعة إلهية ، وأكبر دعوة إلى التعاطف والتساند والتمسك بين الناس ، وهى وما حبب فيه الإسلام من الصدقة والإحسان ، ورعاية الفقير وإكرام الجار ، وقرى الضيف وابن السبيل ، أعظم حل عملى لأعظم مشكلة عالمية استفحلت اليوم ، وهى المادية ودعوة الماديين .

ولما مات رسول الله صلوات الله عليه ، كانت القبائل العربية ، لا تزال بحمقها وجاهليتها غاضبة ناقمة على الإسلام وشريعته فى الزكاة ، فارتد الكثير منها عن الإسلام ؛ فصمم أبو بكر على محاربة هؤلاء المرتدين مهما كان ، وهو يقول : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

ونهض بنفسه لحرب المرتدين حتى أصاخوا لدعوة الإسلام ، وأدوا لأبى بكر زكاة أموالهم التى كانوا يؤدونها لرسول الله .

رحمك الله ياعمر ، لقد سبقت العالم المتحضر إلى ما يعملون ، فقد كنت تصرف للفقير من بيت مال المسلمين طعامه وكساءه وغطاءه ، وكنت تحمل على ظهرك القوت لتذهب به إلى من تستطيع .

إننا نطالب الحكومة بأن تفرض الزكاة فرضا ، وأن تجمعها من الأغنياء بقوة القانون ، وأن تصرفها فى مصارفها التى أمر الله ورسوله محمد صلوات الله عليه . فالزكاة ركن كبير من أركان

الإسلام ، وفيه علاج حاسم لأمراض المجتمع ، وتقريب كبير بين طبقات الأمـــة ، وتعاون مثمر بين الأغنياء والفقراء ، ورفع لمستوى الأمة الاجتماعى ، ودواء لأهم مشكلة من مشاكلنا العامة، ألا وهى الفقر

وإخراج الزكاةوتقديرها موكولان إلى ضمير المسلمين ودينهم ، وهم المسئولون عن ذلك أمام الله وأمام المجتمع والناس ... ولكننا أصبحنا الآن فى زمن مادى يتحلل منشريعة الله ؛ ويعصى أوامر الله ، ويجد الزكاةمغرما ، بعد أن كان أسلافنا الأولون يعدونها مغنما كبيراً، لما فيهامنحيازة رضاءاللهوالملائكة والناسودعوات الفقير واليتيم والمسكين ، ولما فيها من قضاء على الإجرام والنهب والسرقة والاعتداء على أموال الأغنياء ، وصدق الله العظيم حين يقول : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

وجباية الزكاة فرض على المسئولين اليوم ، بعد أن أصبح أغنياؤنا لا يعبأون بهذا الركن الخطير من أركان الإسلام ، ولنا فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه أسوة حسنة حين حارب الذين منعوا الزكاة حتى أفاءوا إلى دين الله وشريعته ، وأدوها كما كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

إننا نرى أن تؤلف لجان فى كل قرية ومدينة بقرار وزارى ،

من أعيان المسلمين ومن العلماء فى هذه الجهات . وتتحرى هذه اللجان الحق والصدق فى عملها ، وتشرف على جمع الزكاة بشتى أنواعها من الأغنياء وعلى صرفها على مستحقيها من فقراء المسلمين ، على أن لا تخرج زكاة قرية أو مدينة منها ؛ بل تصرف فيها على فقرائها ، وتكون هذه اللجان مسئولة عن أعمالها أمام القانون والحكومة .

وبهذا نضمن تحقيق غرضين شريفين:

الأول : التحقق من أن كل غنى دفع الزكاة الواجبة عليه كاملة غير منقوصة .

والثانى : التأكد من وصول الزكاة إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين .

الإسلام يحارب الفقر :

حارب الإسلام عدواً لدوداً للإنسانية كافة ، هذا العدو هو الفقر ، الذى كثيراً ما يكون سببه سوء توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أو جدب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد صلوات الله عليه إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة ، بعقل

المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول ، وفى مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف ، ولاستعباد الفقراء ، وتسخير الضعفاء ، فحارب محمد صلوات الله عليه هذه الفكرة الخاطئة ، وأعلن أن المال هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ، ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع وكسوة العارى وإسعاد الناس . وهو وديعة الله فى أيدى الأغنياء ، ومال الله استخلفهم عليه ، وجعل من سنة الإنسان المهذب فى الحياة الإيثار لا الأثرة والإعطاء لا الأخذ ، والقناعة والرضا والشكر ، لا الجشع والطمع والسخط والجحود .

وكان الأغنياء لا يعرفون فى المال حقوق الله والفقراء والمساكين فطالبهم محمد صلوات الله عليه بما طالبهم به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون»، ونهاهم عن البخل والإمساك والشح والتقتير ، فقال صلوات الله عليه : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ، وقال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ومدح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وفرض حق الضيف وابن

السبيل ، وجعل صلوات الله عليه البر واجبا ، والإحسان فريضة ، والصدقة شريعة اجتماعية ، والزكاة أمراً محتوما لمصلحة المجتمع كله . ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس ، وجعل أساسها الأسرة ، وفرض على الرجل حقوقا يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله ، وطالبه بأن يرعى أبناءه حق الرعاية ، ويوفر لهم بعمله وجـده وسائل الحياة الكريمة . وحث على القناعة والاقتصاد ، فقال صلوات الله عليه : « طوبى لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » ، وقال : « ما عال من اقتصد » .

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات ، فدعا إليها الرسول صلوات الله وحض عليها ونادى بها ، وسن كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها . لكي تتداول الأيدى المال ، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصدا للربح والكسب الحلال ، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، وقرر محمد صلوات الله عليه حرمة المال فقال : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ودعا إلى اكتساب الأموال من طرقها المشروعة فقال : « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » . وعمل على حفظ كرامة الفقراء ، ففضل صدقة السر ، وحض على ترك المن والأذى وكره السؤال وحرمه من غير حاجة ، وجعل اليد العليا

خيراً من اليد السفلى ؛ وحبس محمد صلوات الله عليه الأموال — التى تؤخذ من الفىء ، والخراج ، والجزية والغنائم والعشر والركاز وسواها على مصالح الفقراء ، والتمكين لهم فى الحياة والمعيشة ، وحرر رقيق الأرض من العبودية ، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذى أسر فى حرب مشروعة ، وبالعمل على تحريره ، كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال .

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعا عادلا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين ، وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء فى أموال الأغنياء ، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حظه الكامل فى الحياة مع مرور الأيام ، وبتقسيمه العادل للميراث بين أولى الأرحام ، وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم ، ونهى عن كنز المال دون أداء حقوقه ، وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه . حتى قال رسول الله صلوات الله عليه لبلال : « الق الله فقيراً ولا تلقه غنيا » .

وحث على الجود والبذل والسخاء ، وكان صلوات الله عليه كما وصفه على : أجود الناس كفا ، وكما وصف فى حديث البخارى ، « فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة ، وتقول عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا » . ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال : « أيما أهل عرصة أصبح

فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ، ونهى عن المحاباة فى كل شىء حتى فى اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : « من ولى أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار » . كما نهى عن الخيانة فى الأموال العامة فقال : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » — أى خيانة .

ولقد حبب محمد صلوات الله عليه الناس فى الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات ، وقال لهم : أنتم أعلم بشئون دنياكم . وجعل ثلث المال فى خدمة الناس ، والفقير من بينهم خاصة ، ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال ، وإنما كان يضعها فى بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهم بن الصلت يكتبان له أموال أموال الصدقات ومعيقب بن أبى فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم ، وكان حذيفة ابن اليمان يكتب لرسول الله صلوات الله عليه خرص ثمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد فى رزقهم ، فاستعمل عتاب ابن سيد الأموى واليا على مكة ، وجعل رزقه كل يوم درهما ، وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء ، وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس ، حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذى كان غالبا على جزيرة العرب .

وقد دعا صلوات الله عليه إلى إصطناع الأيادى عند الفقراء : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادى ، فإن لهم دولة ، قالوا : يارسول الله : وما دولتهم ؟ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا ، فخذوا بيده ثم امضوا به الجنة » ؛ وجعل الرسول الأكرم فى كل معروف وكل عمل صدقة فقال : «كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان » ، ورفع الرسول صلوات الله عليه من منزلة الفقراء ، ولم يجعل المال أساسا للحكم على الأشخاص .

وقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من شأن الفقراء والمستضعفين ذوى الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل فى الدولة الإسلامية ، مما قلب الأوضاع فى توزيع الثروات بين الناس وإنصاف الفقراء ، وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه ، الإنسانية فى أروع صورها

والمثل الأعلى فى أمجد مظاهره ، والقائد المظفر الذى هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى ، إلى الأمن والهدوء والاستقرار ، وكانت حياته كلها كفاحا مجيدا فى سبيل الله والحق وتقرير حريات الفقراء وكرامتهم ، وكانت جهادا صادقا وجهته الخير وإسعاد الناس ، ومن أجل ذلك توج هذا الجهاد بالنصر ، الذى هزت ذكرياته مشاعر الناس ، والجماعات والشعوب فى كل مكان وجيل ، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا ، ونشيد الحياة ، وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحى المقدس ، والناموس السماوى الحكيم .

لقد استطاع رسول الله صلوات الله عليه أن يجعل الفقراء والأغنياء إخوانا متحابين متآخين متعاونين . وأن يقيم فى المجتمع الإسلامى اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادىء الروحية والمثل العليا ، وتجعلها أساسا من أسس الاقتصاد التعاونى الجماعى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير فى الأرض أن يقضى على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة ، والاضطراب والقلق بين الطبقات . وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ؛ وكفالة حريته وحقه فى الحياة الهانئة الكريمة ، وهدم كل

الصروح التى أقيمت ظلماً وبهتانا بأيدى الإقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

ولا تزال هذه المبادىء الكريمة ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحى الخالد ، الذى يعد مفخرة من مفاخر البشرية ، فى نهضتنا وثوثبها إلى الكرامة والحرية .

« قالوا إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ، قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ »

سورة المؤمنون — آية ٨٢ — ٨٤

بين مبـــدا ومهجين

(١)

الاشتراكية لا تدعو إلى إلغاء الملكية الفردية ، وإن كانت ترى تأميم المرافق المتصلة بالخدمات العامة[1] . أما المادية فلا تقر الملكية الفردية ، وكان ماركس يرى أنها أساس النزاع بين الطبقات ، وقد قام الماديون بإلغاء الملكيات الخاصة ، وتأميم مصادرة الثروة ، ونفذوا ذلك بالقوة والعسف ، وجميع موارد الإنتاج والثروة فى يد الحكومة ، تنتج وتوزع ، فهى صاحبة المصانع والمزارع والمتاجر والمناجم ومنازل المدن ، ويمنع القانون الشيوعى امتلاك سيارة للاستغلال التجارى ، وفى المادة الخامسة من الدستور السوفيتى الملكية الاشتراكية إما أن تأخذ شكل تملك الدولة فتكون الثروة للشعب عامة ، أو شكل الملكية التعاونية الجماعية . ومحاربة المادية للملكية الفردية استتبع محاربتها للإرث وتحريمها له .

إن مبدأ إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاما ينافى الفطرة الإنسانية وغريزة التملك فى الإنسان ، ويدعو إلى الخمول والكسل ، ويخالف تعاليم جميع الأديان ، وقد طبق ذلك فى المجتمع المادى فى روسيا بقوة السلاح ، ثم أخذت الحكومة فى التراجع : فأباحت للمواطنين الامتلاك الشخصى للدخل الناتج عن عملهم ومدخراتهم ولأثاث

(١) ٢٠٠ النظام الاشتراكى .

البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى ، وأجازات للفلاح فى المزرعة المشتركة أن يملك حديقة حول منزله.

(٢)

أما الإسلام فقد شرع وحمى الملكية الفردية ، وأجاز لمن أحيا أرضاً مواتا بإذن الإمام ولو ذميا أن يملكها إذا كانت بعيدة عن العامر ، على أن يعمرها خلال ثلاث سنين ، وإلا أخذت منه ودفعت لغيره .

ولا شك أن فى حماية حرية الملكية أمام الإنسان تحريرا له من قيود الوصاية الاجتماعية ، واعترافا بشخصيته وكرامته الإنسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ، ودفعا له على تحمل مسؤليات الحياة .

لقد بعث محمد صلوات الله عليه إلى الناس كافة ، ومعه رسالة تضىء ظلمات الحياة ، وشريعة تقضى على الأغلال والعبودية ، وبين يديه دستور خالد يهدى إلى النور والحق والحرية والمساواة والعدالة والإخاء.

ولقد حرر الإسلام وكتابه الحكيم ورسوله الكريم المستضعفين فى الأرض ، ومحا الاستعباد السياسى والاجتماعى . . وقـــرر مسئولية الحاكم وأنه خادم الشعب : وأن لا طاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله . . وقرر أن أول واجب عليه كذلك حماية

دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ، وألغى الألقاب ونظـــام الطبقات الجائر ، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس ، فكلهم لآدم وآدم من تراب : ولا فضل لعربي على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ؛ وحرم الترف والفساد والاستغلال والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل وجعل لكل فقير حقاً فى بيت المال، فإن لم يكن فى بيت مال المسلمين ما يسد حاجات الفقراء فحقوقهم يجب أن تؤخذ من أموال الأغنياء التى كره الله كنزها ، وأنذر من يكنزها ، لإنفاقها فى غير مرضاة الله بعذاب شديد : « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكون بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . وفرض الإسلام الخراج والجزية وزكاة الأموال لينفق منها على المساكين والفقراء ؛ ودعا إلى الورع والزهد فى مال الناس ، وإلى ترك الإسراف فى التملك لأنه مدعاة للترف والهلاك والخروج عن حدود الفضيلة والعفة والدين ، وأعلن وحمى مبدأ تكافؤ الفرص أمام الناس جميعاً .

كل هذه المبادىء الكريمة تنبئنا برأى الإسلام فى الملكية :

فهو لا يعترف بملكية اقتطعها الحاكم من مال الأمة ومنحها لمن يشاء دون حساب ، ولا يعترف بملكية آلت إلى صاحبها نهبا واستغلالا للنفوذ أو سرقة خفية من أملاك الدولة ، أوتحت

ضغط الحاجة الملحة المصنوعة ،ولا يعترف بملكية ملكها صاحبها بمال جمعه بشتى الوسائل غير المشروعة ،دون أن يؤدى منه حقوق الله والفقراء وزكاة المال .

وكل ملكية لا يعترف بها الإسلام يجب مصادرتها وضمها إلى بيت المال،ومن باب أولى يجوز ردها إلى الدولة عن طريق الشراء ليعاد توزيعها على الفقراء توزيعا عادلا . والفقراء هنا ليسوا عددا قليلا حتى لا يحسب لهم حساب ، وإنما هم الأغلبية العظمى من الشعب ، إن لم يكونوا الشعب كله ، ممن لا يجدون الغذاء والكساء وثمن الدواء .

ولقد أباح الإسلام مصادرة الأموال التى جمعها أصحابها من دماء الناس ظلما وبهتانا ، وهذا عمر بن الخطاب قد صادر أموالا كثيرة لولاته على الأقاليم : كعمرو بن العاص وأبى هريرة والنعمان بن عدى وعامله على اليمين وعلى مكة والكوفة والشام،ولقد كان خلفاء المسلمين وولاتهم وعمالهم يتعففون عن مال الدولة لا يمسونه ولا يقربونه ، فضلا عن أن يمتلكوا أرض المسلمين ، وكان رسول الله يحاسب ولاته حسابا عسيرا ، يسألهم من أين لكم هذا ؟ وولى مرة رجلا على أموال الزكاة : فلما رجع حاسبه فقال الرجل:هذا لكم وهذا أهدى إلى ، فقال الرسول الكريم : « ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر : أيهدى إليه أم لا؟ »

وهذا عمر بن عبد العزيز لما ولى خلافة المسلمين نزل عن أملاكه التى أنتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعى ، ومزق كتب الإقطاعات بالضياع والنواحى ، وأبطل قطائع أهله وهم أولاد الخلفاء من بنى أمية وضمها إلى بيت المال،ومزق ما معهم من وثائق بملكيتها . وكان أبوه عبد العزيز والى مصر للخليفة عبد الملك بن مروان ، فأهداه الخليفة أرض حلوان إقطاعا ، فلما ولى ابنه عبد العزيز الخلافة قدم مصرى عليه يطالبه برد أرضه التى أخذها أبوه منه ظلما فى حلوان ، فقال عمر : تعال نحتكم إلى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما أنزل الله فإن لى فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض، وقام معه إلى القاضى فقعد الخليفة بين يديه، وتكلم بحجته وتكلم المصرى،فقضى القاضى للمصرى على الخليفة ، فقال عمر بن عبد العزيز : قد أنفقنا عليها ألف ألف درهم ، فقال القاضى : لقد أكلتم من غلتها بقدر هذا ، فاطمأنت نفس عمر ، وقال : وهل القضاء إلا هذا ؟ والله لو قضيت لى ما وليت لى عملا .

وهناك كثير من الملكيات قد امتلكت من الفلاحين الفقراء المدينين بطريق المزايدة ، وهو ملك فيه إثم وشبهة ، ولقد كان على بن أبى طالب وهو خليفة المسلمين ينهى عماله أن يبيعوا حاجيات الفلاح وأدوات زراعته وما يعيش عليه هو وأولاده لسداد ما عليه من دين أو خراج .

هذا حديث الملكيات التي يجب أن تصادر في رأى الإسلام ، أما الملكيات الكبيرة الأخرى التي قد نتجوز فيقول قائلنا : إنها ملكت بطرق مشروعة لا دخل فيها للاستغلال ولا لمجاملة الأقوياء ، فإن ردها إلى الدولة لتوزعها على الشعب وإن لم يكن واجبا لكنه جائز بحكم الدين ، فإن الله تعالى قد كره أن تكون الأموال ومصادر الثروة في أيدى طبقة خاصة من الشعب ، وهم الأغنياء وحدهم دون الفقراء . أفلا نرى إلى قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ، فنظام الثراء الفاحش والفقر الشديد لا يقره الإسلام شريعة المدنية المهذبة والإنسانية الرفيعة . إن الإسلام لا يبيح إثراء أفراد بإفقار أمة ، ولا إسراف طائفة في امتلاك بإشقاء مجتمع بأسره ، بل إنه يجيز الحجر على الأقوياء حتى لا يسرفوا في تملك الأرض ، فهذا عمر بن الخطاب يحجز على أعلام قريش من المهاجرين ، حتى لا يخرجوا إلى البلاد المفتوحة يمتلكون أرضها دون الناس وكان يقول : « ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباد ، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا » . وهذا معناه الواضح « تحديد الملكية » .

ويؤثر عن جابر بن عبد الله حديث ينص بصراحة تامة على

أن مالك الأرض إما أن يزرعها بنفسه . وإما أن يتنازل عنها ولو بالهبة لغيره من الناس قال جابر : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا : نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول عليه السلام : « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه » ، أى ليزرعها بنفسه أو ليتنازل عنها ولو بالهبة لأخيه المسلم ، ولا يعطيها إياه مؤاجرة لأن ذلك مظهر للتعاون بين المسلمين .

إن الإسلام يقر مبدأ تحديد الملكية ، ليعيش المجتمع كافة بنعمة الله إخوانا وليتعاون الفقراء والأغنياء على خير الأمة وسعادتها ومجدها ، ولتتقارب الطبقات ، وتزول الفروق الواسعة بين الناس ، ويمحى من بيننا الفقر والجوع والعرى ، وليشعر الفلاح والعامل الزراعى بأنهما كغيرهما من الناس ، لهما الكرامة والحرية والحياة الطيبة الرغيدة ، وأن الحكومة التى تقوم على شئون الشعب تحرص على توزيع العدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة دون تمييز أو استثناء . وما أصدق مايقول الرسول الكريم : « أيما أهل عرصة — أى محلة — أصبح فيهم امرؤ جائعا . فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » .

(٣)

وتقول لجنة الفتوى بالأزهر : « إن من مبادىء الدين الإسلامى

احترام الملكية . وذهب أبو ذر إلى أنه يجب على كل شخص أن يدفع ما فضل عن حاجته من مال مجموع عنده فى سبيل الله ، أى فى البر والخير ، أى أنه يحرم ادخار ما زاد عن حاجته ونفقة عياله ، . .

ويقول المغفور له الشيخ الشناوى شيخ الأزهر الأسبق(١) : «القرآن الكريم قد احترم الملكية الفردية وصانها ونظم انتقالها إلى الأبناء والمستحقين . وفصل القول فى قواعد المواريث وتحديد الأنصبة فيما تركه الوالدان والأقربون قل منه أو كثر . وبيان الوصية التى للمالك فى ماله لمن شاء . بما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك، وانتقال هذا الحق من بعده إلى وريثه من أبنائه وأقربائه ، ولقد حمى الإسلام حرية التملك ودعا إلى احترامها ، فلكل فرد أن يقتنى من المال ما تمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدى الزكاة ، وله أن يتصرف فى هذه الأموال بما يراه وتبقى بعده تركته لورثته ، وحكم الإسلام فيمن يتأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها معلوم وهو أخذه بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة إليها، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض » .

---

(٢) من حديث له مع صحفى - مجلة الأزهر المجلد العشرون ١٣٦٨ -

الدين والإنسان

الإسلام دين اشتراكي عادل ، بل وهو أرفع من الاشتراكية الحديثة في مبادئه ونظمه وسلامة الاقتصاد فيه ، وما أصدق ما يقول شوقي في الرسول الكريم :

الاشتراكيون أنت إمامهم   لولا دعاوى القوم والغلواء

ولكن الإسلام يخالف المادية ، وهو معها على طرفي نقيض ، يخالفها في مبادئها ونزعاتها وأهدافها كل الخلاف .

المادية مبدأ اقتصادي ينزع إلى السيطرة على الشعوب ، والإسلام يكره السيطرة ويدعو إلى أخوة الأمم .

وهي فوق ذلك تخالف سنة الفطرة والاجتماع في مبادئها وغاياتها ، وذلك ما يأباه الإسلام ولا يحبه .

وهي تثير النزاع بين الناس والطبقات ، وتحرض الفقير على الغني ، بل هي مبادىء غريبة على العقل والمنطق السليم .

والمادية الحديثة ترتكز على دعائم كثيرة :

أولها محاربة الأديان — ومن بينها الإسلام — حربا لا هوادة فيها : لأن الأديان عامة تنكر مبادىء المادية ، ولأن المادية تدعو إلى الإلحاد وعدم الإيمان بدين من الأديان ، وإلى فصل الدين عن الدولة ، وإلى غرس أصول الإخلاق المادية في نفوس الشبان ، لتصبح هذه الأصول وحدها دون ما سواها هي دين الفرد ، ليقضوا بهذه الأصول على تراث الإنسان الروحي والفكري وعلى فطرته التي فطر عليها : من حب التدين والإيمان بدين سماوي شرعه

الله لعباده، بل إن المادة الرابعة والعشرين بعد المائة من دستور ستالين تنص على « حرية الدعوة اللادينية »، وقانون عام ١٩٢٩ يفرض قيودا حاسمة على الهيئات الدينية ويعتبرها عملا غير مشروع .. وقوانين عام ١٩٣٩ تنص على:

١ — ضرورة تسجيل الجمعيات والمنظمات الدينية .

٢ — منع الهيئات الدينية من تشكيل أنفسها فى جماعات تعاونية أو جماعية .

٣ — حظر الاجتماعات الدينية الخاصة ، واجتماعات المصلين، واجتماعات الشباب وللنساء والأطفال .

٤ — عدم السماح للهيئات الدينية بالاحتفاظ عندها بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم فى المراسيم الدينية .

٥ — حظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية .

ولم تغب نوايا الماديين عن بال الكنيسة الأرثوذكسية الروسية عند قيام الثورة الشيوعية ، فلقد دعا رئيسها البطريرك « تيخون » فى رسالة له بتاريخ ١٩ يناير ١٩١٨ أبناء الكنيسة إلى « عدم الاشتراك بأى شكل من الأشكال الماديين » .

وقد اضطهد روسيا المسلمون فى تركستان وبخارى وسمرقند وفى كل مكان اضطهاداً شديداً ؛ ونفى الكثير منهم إلى سيبريا .

صحيح أن البلشفية أعادت حرية المتدينين الدينية خــلال الحرب الأخيرة وبعدها ، ولكن ذلك إنما كان ذرا للرماد ، وقضاء على دعايات الأمم الغربية ضدها ، وخوفا من أن يؤلب البابا القوى عليها ؛ وهى وإن أذنت للمسيحية فى بلادها بالعودة إلى الظهور فإن الإسلام لا يزال غريبا فى بلادها المترامية الأطراف .

ولا شك أن الإسلام يقف سدا منيعا أمام ذلك التيار الذى يريد أن يحطم كل شىء أمامه ، وأن يعصف بتراث الإنسانية الروحى ، وبالمبادىء السامية التى قامت ونمت وازدهرت فى روح التدين وفكرة الإيمان العميقة فى الإنسان .

والدعامة الثانية التى تقوم عليها المادية : هى محاربة حرية الإنسان ؛ وإفناء شخصيته فى شخصية الدولة ، وجعله آلة مسخرة للحكومة مما يستدعى إشاعة الاضطراب الاجتماعى وقيام الحروب والخصومات بين الطبقات والطوائف ، والقضاء على الأمن الداخلى للأمة .

وهذه الأمور يحرمها الإسلام ، ويحاربها بكل مايستطيع ، والمسلمون كافة يؤمنون بمبادىء الإسلام السمحة الكريمة ، التى من أخصها حرية الإنسان فى التملك ؛ والتى لا تمنع أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض إخوة متحابين . يقول الله تعالى فى سورة سبأ : « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له » .

ويقول عز وجل فى سورة الروم : «أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون» ، ويقول فى سورة الإسراء : «إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا» ؛ ويكرر ذلك فى سور كثيرة ، مما يجعل المسلم يؤمن إيمانا جازما بأن ذلك أصل من أصول الإسلام ؛ ولا شك أن فى فتح حرية الملكية أمام الإنسان تحريرا له من قيود الوصاية الاجتماعية واعترافا بشخصيته وكرامته الإنسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ليستغلها فى الحياة لكسب الرزق والمال من طرقهما الشريفة المشروعة ، وتمشيا مع نظام الحياة نفسها ، وسموا بالحياة البشرية الخاصة والعامة . وقد دعا الأغنياء إلى البذل والصدقة والإحسان ، وأداء الزكاة للفقير والمحروم ، وجعلها من أركان الدين ، وذلك نظام سليم يسير مع المنطق والفطرة والحياة وحرية الإنسان ، ويحقق العدالة الاجتماعية بأسمى معانيها . إن مبادىء الإسلام والقرآن تغنى عن كل مبدأ ، وترتفع بالإنسان ، والإنسانية ، أكثر مما ترتفع بهما المبادىء الوافدة علينا . وما أصدق شاعرنا المعاصر الذى يقول :

قل للشيوعيين وأمثالهم   رفقا بهذا الشرق فى مأساته
فوضى المذهب فى بنيه تضارب   لا يستقيم به نظـام حياته
عودوا إلى القرآن أعدل مذهب   وخذوا الحقيقة من لسان دعاته
فأقل ما يدعو إليه سعادة   للعالم الملتـاع من ويلاته
فضل الزكاة كفاية لفقيره   لو يسمع المثرى نداء زكاته

الأسرة فى ظل الإسلام والمادية

(١)

للمرأة فى النظام المادى ، حقوق مساوية لحقوق الرجل فى كافة ميادين الحياة العامة : الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، لها ماله من حقوق ، وعليها ما عليه من التزامات ، فهى مجبرة على العمل لتأكل ، لأن ، من لا يعمل لا يأكل ، وهى على قدم المساواة فى المنزل وخارجه ، ولها مطلق الحرية فى سلوكها الشخصى دون رقابة الزوج ، وتعمل فى المزارع والمصانع ، وهى نائبة وموظفة .

والزواج سهل ميسور ، يكفى أن يقيد الزوجان اسميهما فى سجلات الزواج المدنية ،وهما يعملان فى الصباح ، وتسلم الأم أولادها إلى ملاجىء الطفولة ، وعند عودتها للمنزل مساء تأخذهم معها ، ويشترك الزوجان فى شئون المنزل ، ولها إجازتها من العمل قبل الوضع وبعده ، ولكل منهما حرية الانفصال عن الآخر متى شاء .

وكل فتى راشد أو فتاة مسئول عن نفسه ؛ لا يعتمد فى معاشه على أحد ، يقبض أجره ويتصرف فيه ، وله أن يحمل اسم أمه أو اسم أبيه أو يستقل باسمه .

هذا منطق المادية . أما الإسلام فآرؤه فى الأسرة مثل أعلى فى الإصلاح .

فقد كفل المرأة جميع الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية ، وأطلق لها حرية الرأى والتعبير ، والحرية فى التعلم والتعليم وخدمة المجتمع ، وقرر حريتها الشخصية وكيانها المعنوى ، وساواها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، والإسلام يجيز اشتراكها فى الشئون العامة ، وأن تشير وتستشار فيها ، وإن كان لا يخصصها لذلك وحده حفظا للأنوثة وواجباتها . . وقد حرم الإسلام ألوانا كثيرة من رق المرأة كالزنا والبغاء ، وجعل صلتها قائمة برباط مقدس هو الزواج الذى لا يتم إلا برضاها ، وجعلها راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وأوجب معاشرتها بالمعروف ، وجعل مهمتها الأساسية هى رعاية المنزل وتربية الأبناء والتعاون مع الرجل فى الحياة . . ونفقة المرأة على أبيها أو ولى أمرها قبل الزواج ، وعلى زوجها بعده غنية كانت أو فقيرة ، فإن لم يكن لها عائل فنفقتها من بيت المال ولها مهرها وحقها فى الميراث ، الأنثى نصف الذكر . . وقيد إباحة تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة لأهداف اجتماعية سامية .

وآراء الإسلام فى المرأة والأسرة تنافى ما تذهب إليه المادية، فهو يحترم المرأة ويجعل لأن مملكتها البيت، وهى ليست مسئولة عن معاشها فى نظر الإسلام، وهو يجعل الزوج رقيبا على سلوكها، ويعهد إليها - لا إلى دور الحضانة - بتربية الأطفال، ويخلق من الأسرة وحدة اجتماعية سليمة قوية. وآراؤه فى ذلك تتفق والعقل والدين والفطرة الإنسانية وأصول الاجتماع.

(٢)

الاسرة هى الوحدة الاجتماعية الأولى فى الأمة ، والنواة الصغيرة التى يتكون منها المجتمع الكبير .

ولم يغفل الإسلام الأسرة من حسابه ، بل لقد دعمها ، وقواها وربطها برباط مقدس شريف ، وبعث فيها الحب والتعاون والمودة والإخلاص .

أساس الأسرة المرأة والرجل : وقد جمعهما الله لغرض عظيم ، وفى ظل رابطة مقدسة ، هى رابطة الزواج ،

والزواج شركة مقدسة جعله الإسلام قائما على رضا الزوجين ومحبتهما وتعاونهما ، « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . ولا يتم عقد الزواج إلى بعد خطوات دقيقة ، الهدف الأول منها إعزاز المرأة ورفع مكانتها ، منها كفاءة الرجل وحده ، والتزامه بمهرها . وبنفقتها ، ونفقة أولادها ، وبحسن معاملتها ورعايتها .

فإذا وجد للأسرة بنون أو بنات فعلى الزوجين تعهدهم رعايتهم وتأديبهم وتهذيبهم .

وعلى الزوجين أن يتصرفا فى مالهما تصرفا سليما، يقيهما شر الفقر ، ويكفل لأولادهما قسطا من الرفاهية والحياة الطيبة .

وعلى المرأة أن تكون أمينة على مال زوجها ؛ وأن تحافظ عليه محافظتها على مالها .

وعلى الإبن متى كان قادرا أن يقوم بشئون أبيه وأمه وأخواته الصغار . ويعول أقاربه ويحسن إليهم جميعا، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

فإذا مات الزوج أو الزوجة ورث كل منهم الآخر فى بعض ماله ؛ ووزع الباقى على من يستحقه بفريضة الميراث ، وفق شريعة الإســـلام .

ونهى الإسلام عن الوصية للوارث ، قال الرسول صلوات الله عليه ؛ « لا وصية لوارث » . كما نهى عن الوصية لغير الوارث بأكثر من الثلث . وذلك لينتفع أكبر عدد من الأقارب بالميراث . ولتتوزع الثروات الكبيرة فتقل الفروق الاجتماعية بين الناس . فأين هذا من تشريعات أوروبا التى تجيز أن تنقل ثروة الميت إلى الإبن الأكبر وحده ، ويترك أخوات هذا الابن عالة على المجتمع وعلى أخيه ، وتجيز للرجل أن يوصى بماله كيفما شاء ولمن شاء ؟

فإذا كان الزوج قادرا ، ووثق من نفسه العدل والإنصاف أباح له الإسلام أن يجمع فى عصمته بين أربع زوجات .

وإذا تعسرت الحياة الزوجية ، واستحال الوفاق ، ولم يجد التحكيم ، أجاز له الإســـلام الطلاق . . ويحرم الإسلام شتى أنواع العلاقات الجنسية الآثيمة : من زنا وبغاء ، ومصادقة ، ومتعة ، حفظا للأسرة ولكيانها المقدس . ويكفل الإسلام حرية الأبناء . ويساوى بعضهم فى المعاملة ببعض . ويفرض على الآباء القيام على رعايتهم وتهذيبهم وتوجيهم توجيها صالحا فى الحياة .

إلى غير ذلك مما شرعه الإسلام لتكوين الأسرة ، ودعمها فى المجتمع الإسلامى لتنظيم كيان الوطن الإسلامى ، والسمو به إلى الخير والحق والعدالة والطهر والشرف والإخاء .

(٣)

كفل الإسلام المرأة جميع الحقوق المدنية وأطلق لها الحرية في التعلم والتعليم وخدمة المجتمع، وأعطاها حقوقها المالية والإجتماعية التي حرمتها الشرائع الأخرى منها . . واحتفظ لها بحريتها الشخصية وكيانها المعنوى، وساواها بالرجل في الحقوق والواجبات، وأباح لها تولى القضاء، وأعطاها حقها في الميراث للأنثى نصف الذكر؛ بقدر أعبائها المادية في الأسرة .

وجعل للمرأة الحق في أن تملك وتبيع وتشترى وتهب وتقبل الهبة وترهن وتوصى وتعقد باسمها العقود، وتتصرف في مالها بسائر ألوان التصرف، دون حاجة إلى إذن زوجها أو ولى أمرها، ولا يوزن الإسلام في ذلك بأى تشريع حديث، فإن حالة المرأة في فرنسا لا تزال حتى الآن أشبه بحالة الرق المدنى، فقد نزع القانون منها صفة الأهلية في كثير من الشئون المدنية، فلا يجوز للمتزوجة بيع ولا شراء ولا هبة ولا رهن ولا وصية ولا أى عقد من هذا اللون إلا بإذن زوجها وتصديقه، وفي أغلب القوانين الحديثة تفقد المرأة بمجرد زواجها اسمها واسم أسرتها، وتنسب إلى زوجها وأسرة زوجها، وفقدان الإسم رمز وعنوان لفقد الشخصية المدنية باندماجها في شخصية الزوج كما يقرر علماء القانون،

والإسلام يفرض نفقة المرأة على أبيها أو ولى أمرها قبل الزواج ، وعلى زوجها بعده ، غنية كانت أو فقيرة . فإن لم يكن لها عائل فنفقتها ونفقة أولادها من بيت المال .

وجعل شهادة المرأتين مساوية لشهادة رجل واحد ، لأن المرأة أكثر عاطفة وتأثرا وقبولا للإغراء ، فاحتاط الإسلام للعدالة أكبر احتياط .

ويقول رسول الله من خطبته فى حجة الوداع : « يا أيها الناس إن لكم على نسائكم حقا . ولهن عليكم حقا . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، إنهن لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

وقد حرم الإسلام ألوانا كثيرة من رق المرأة ، وحرم الزنا والبغاء وشتى ضروب المهانة التى تنزل بها ورفع كرامتها وجعل صلتها بالرجل مبنية على أساس رباط مقدس أباحه الإسلام وأكده ورعاه وهو رباط الزواج ، وجعلها راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وأطلق لها حرية الرأى والتعبير حتى قال عمر : « أصابت امرأة ، وأخطأ عمر » .

وأوجب معاشرتها بالمعروف ، واستوصى بالنساء خيرا . وجعل

لها الحرية فى الرضا بمن تتزوجه ، وفى الصحيحين أن خنساء بنت جذام زوجها أبوها وهى كارهة وكانت ثيبا ، فأتت رسول فرد نـــكاحها .

إن هذه الحرية التى أعطاها الإسلام للمرأة لا نظير لها فى أية شريعة من الشرائع ، وليست الحرية عنده إلا بالشرف والعفاف والـكرامة المعنوية . .

المساواة مطلقة بين المرأة والرجل فى الحقوق والواجبات ، المرأة زميلة للرجل فى الحياة ، ولـكن منطق العقل والدين جعل لهـا البيت وجعل على الرجل تحمل الأعباء العامة وإدارة شئون الزراعة والتجارة والصناعة وشئون وطنه العامة ، والقيام بأعباء السياسة والإدارة والحرب والأمن . .

(٤)

وقف كثير من الباحثين الغربيين حيال تعدد الزوجات فى الشرق موقف الناقم الساخر المتهكم، وقالوا: لقد ظلم الشرق المرأة، وهدم الأسرة، وقوض دعائم الحياة الاجتماعية فيه؛ بإباحة تعدد الزوجات، مما كان سبباً فى تأخره وضعفه ووقوفه فى معترك الحياة الإنسانية جامداً أجيالا طوالا، وكذبوا فيما قالوا.

لقد ذاقت المجتمعات الغربية الآلام التى لا نهاية لها من وراء تحديد الزواج بامرأة واحدة؛ فانتشرت الرذائل الاجتماعية بينهم وقل وفاء الرجل لزوجته وإخلاص الزوج لزوجها، واتخذ الرجل له صديقات واتخذت المرأة لها أصدقاء.

وشقى الرجل بتربية أولاد علم الله أنهم ليسوا بأولاده، كما شقى بحرمانه من الزوجية الطاهرة السعيدة، وكان هذا كله مثار افكار جديدة جهر بها علماء الاجتماع فى أوربا. فنقدوا هذا الحجر الفاسد الذى أفسد الأخلاق، ودعوا إلى التحرر من نيره الثقيل.

جاء الإسلام والحياة الزوجية فى فوضى جامحة لا تقيد الناس بعدد محدود من الزوجات. فقد يجمعون بين عشرات الزوجات ويجورون فى معاملتهن ومعاشرتهن؛ فكان بين خطتين: فإما أن يمنع تعدد الزوجات منعاً باتا فيفرض الاقتصار على واحدة، وإما أن يخفف وطأة هذا التعدد الجامح. وينظم تلك الفوضى العائلية باتخاذ طريق وسط، فلا يحرم الرجل من التمتع بأكثر من واحدة

ويقطع التعنس والعزوبة . . وقد آثر الإسلام الاتجاه الثانى فأباح للمسلم الجمع بين أربع زوجات بشرط أن يعدل بينهن ، وألا يجور فى معاملتهن .

وكان المشركون قد ألفوا الزواج بعشرات النساء ، ورأوه ضرورة من ضرورات الحياة فهل يطالبهم بالاقتصار على واحدة ؟ ذلك نشوز على أوضاع الحياة وضرورات الاجتماع ، وفيه الطفرة التى لا يؤمن معها من الهلاك ،ولو فعل ذلك لأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة ليطفئوا ظمأ الشهوة . وكيف يضع الإسلام قانونا يوقع الناس فى العنت والإرهاق. وهو دين البشرية الخالد وشريعة السماء الباقية ، وما منهجه فى التشريع إلا التدرج الطبيعى فى أمور الدين ، رفقا بالناس وسعيا بهم إلى الكمال الاجتماعى المنشود .

وحكمة ثانية لهذا التعدد الحكيم ، هى أن الإسلام يرى إلى الإكثار من العدد ، وخير سبيل إلى ذلك هو إباحة التعدد ، وقد تكون الزوج عقيما لا تلد فلو ألزم الرجل بواحدة دون سواها انقطع نسله وذهب أثره ، ولو قلنا له طلقها وتزوج سواها لكنا ثائرين على شرعة العدالة والوفاء ، ولأخرجنا المطلقة من حياة الزوجية إلى حياة تعيش فيها كلا على الناس ، ولو لم نقل بالتعدد لدفعنا بها إلى الفناء البطىء ،ولحببنا الفاحشة والرذائل الى نفوس المحرومين من التعداد .

على أن عماد الأسرة فى الريف وغير الريف على أبنائها ، فهم

الذين يديرون حركة البيت ويقومون بأعباء الأعمال ، وكلما كانت الأسرة أكثر عدداً كانت أقــدر على تحمل مآسى الحياة ، وكلما كانت الأمــة أكثر عددا تستطيع حماية الوطن والدفاع عنه . . ولهذا نحن فى حاجة إلى أن نسند الأسرة المصرية بالأيدى العاملة الكثيرة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات لمن يريد، حتى يشعرَ الرجل بأن من ورائه أيادى تؤيده ، وسواعد تعينه على حمل أثقال الحياة وشدائد الدهر وآلام الكهولة .

لقد قضت الحرب الماضية عــلى زهرة الشباب فى أوربا فأصبحت الأمم تواجه أزمةخطيرة من كثرة النساء وقلة الرجال ، ولاسبيل إلى علاج تلك الأزمة إلا بالرجوع إلى مبادىء الإسلام بإباحة تعدد الزوجات ، لحفظ النظام الاجتماعى وتيسير الحياة على الناس .

ومع ذلك فإنه يجوز تقييد التعدد برأى القاضى وعدم إباحته إلا لضرورة ملحة مع التأكد من مقدرة الزوج المادية ومقدرته على التزام العدالة بين الزوجات اذا دعت الى ذلك ضـــرورة اجتماعية .

«ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون ، لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون

سورة النحل : آية ١٠٦ — ١٠٩

«إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ، لا يهديهم الله ، ولهم عذاب
أليم ، إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك
هم الكاذبون »

سورة النحل : آية ١٠٤ — ١٠٥

خاتمة الكتاب

(١)

من هذه الفصول التي سلفت يتضح بجلاء جلال الإسلام وعظمته وخلوده، وسمو مبادئه وتشريعاته وأحكامه .. وأنه دين إنساني متحضر يصلح لقيادة البشرية، ولتوجيه الشعوب والأمم فى عصرنا الراهن، وجهة الخير والحق والقوة والتقدم والنهضة .

ومنها يتضح كذلك موقف الإسلام من المادية وموقف المادية من الإسلام، بجلاء ووضوح تامين .

(٢)

وعلى الشباب الإسلامى والعربى أن يجعل عقيدته دائما فى قلبه، ليحارب بها المذاهب البعيدة عنا، الوافدة علينا، التى تحاول جاهدة أن تضم بلادنا إلى مناطق النفوذ، وأن تفرض علينا التبعية، وأن تغرينا باسم محاربة الفقر، لتجبرنا على الرضاء باستعمار من لون جديد .

(٣)

ونحن بنشرنا لهذه الفصول، إنما نؤدى الأمانة التى فى أعناقنا لله ولرسوله ولدينه وللشعوب الإسلامية والعربية، التى نرجو لها القوة والمجد والازدهار فى ظل دينها وقوميتها، وفى ظل الرسالة العظيمة التى تؤمن بها .. وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

فهرست الكتاب

مطابع الإسلام
١٨ شارع عبد العزيز جاويش - عابدين
تليفون ٢٤٩٣٢ القاهرة